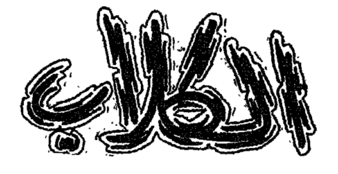

كتاب اليوم
إسماعيل ولي الدين
الكلاب والبحر

إسماعيل ولي الدين



و



الغلاف

بريشة الفنان

الاستاذ حسن بيكار

أسوار المدابغ

وقيل **في كتب التاريخ عن الفسطاط الكثير ..**
قال الشريف أبو عبد الله بن اسعد الجوانى في كتابه « النقط على الخطط » :
وكان في مصر الفسطاط من المساجد ستة وثلاثون الف مسجد ، وثمانية آلاف شارع مسلوك ، والف ومائة وسبعون حماما .

وقيل أيضا في كتاب الخطط .. إنه طلب لقطر النـدى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون الف تكة بعشرة آلاف دينار ، فوجدت في السوق في أيسر وقت وبأهون سعي .

وقال ابن المتوج : وكان بها دار كافور الاخشيدي وخطة تعرف بسوق العسكر وكان مسجد الزكاة وقيل ان منه قصبة سوق متصلة بجامع أحمد بن طولون .

وقال ابن سعيد في كتاب « المغرب في حلى المغرب » :

وفي الفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز ، يصب فيها لمن بها في كل يوم أربعمـــائة راوية ماء .. وحسبك من دار واحـدة يحتاج أهلها في كل يوم هذا القدر من الماء .

وأما عن خراب الفسطاط فقيل ان له سببين : أحدهما الشدة العظمى التي كانت في خلافة المستنصر بالله الفاطمي . والثـاني حريق مصر في وزارة شاور بن يحير السعدى .

ولم يزل الخراب يلم بالفسطاط الى سنة تسعين وسبعمائة ، فعظم الخراب حتى وصل خط زقاق القنديل وخط النحاسين . وشرع الناس فى هدم دور مصر وبيع أنقاضها حتى صارت على ما هى عليه الآن .

وكتب التاريخ ترصد الفسـطاط .. أول عمران اسلامى فى مصر .. كما ترصد أهلها وساكنيها فى الدهور الماضية ، فى الفسطاط قبائل وخطط العرب تنسب اليها كالبصرة والكوفة ، والدور منها يتكون من سبع طبقات ، وربما يسكن فى الدار الواحدة المائتان من الناس، ومعظم مبانيها من الطوب وبها مسجدان مشهوران للجمعة .

وقال ابن سعيد : لما استقررت بالقاهرة ، تشوقت الى معاينة الفسطاط ، ولكننى عندما أقبلت عليها أدبرت عنى المسرة وتأملت أسواراً مثلثة سوداء وآفاقا معبرة ، ودخلت من بابها وهو دون غلق ، مفض الى خراب مشغول بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع ، وقد بنيت من الطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الاسود والازبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الطريف .

وتناسيت الكثير من الناس فى السوق الى أن انتهيت الى المسجد الجامع ، ثم دخلت اليه فوجدت جامعا كبيرا ، قديم البناء ، غير مزخرف ولا محتفل فى حصره . وأبصرت العامة رجالا ونساء وقد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك ، والناس يتركون فضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع وفى زواياه والعنكبوت قد عظم نسجه فى الاسقف والاركان والحيطان والصبيان يلعبون فى صحنه ، وحيطانه مكتوبة بخطوط قبيحة .

هذه هي الفسطاط أول مدينة اسلامية والجامع القديم في عصر قريب من المقريزي .

أما الفسطاط الآن .. فهي مجموعة من الاتربة ومبان قصيرة الارتفاع مهدمة ، يسكنها بشر ، حطام بشر ، وأيضا ياتيها أفراد قليلة من البشر ، يزدادون دسما يوما بعد آخر ، يكثر مالهم ويزدادون رفاهية .. يركبون أفخر العربات يسكنون بعيدا حيث يطلون على خطوط النيل المتفرعة من العاصمة .

ها هي فسطاط القرن العشرين .. من بعيد تبدو أديرة المسيحيين وجامع عمرو بن العاص ، « الجامع القديم » الذي يرحمونه هذه الايام لتكون لهم حسنة واحدة في عصر غريب .

أما بعد ذلك فالفسطاط مدينة الفقر والفضلات والمباني المبنية من الخشب الحبيبي .. ومباني العوز والاسوار القديمة التي تبعد عن القاهرة المتخمة .. عن القاهرة القديمة .. تفصل بين ما يحدث داخل تلك الكيمان من الزبالة والفضلات والمباني الواطئة التي يعمل فيها المنحطون من البشر ، يتخلون فيها عن آدميتهم .. وخارج الاسوار المشيدة منذ عصر صلاح الدين حيث تستقر على طوله العربات الفارهة وبطون الاغنياء التي تهتز في طريقها الى عجلات القيادة .

- ٢ -

حاجز طويل من أقفاص الجريد ، مبان قديمة معزولة عن حركة العمران ، مبان أقيمت من عشرات السنين ، واجهات رمادية كابية ، بعضها غارق في السواد والاثم ، جمال واقفة في خطوط غير منتظمة ، احدى قدميها الاماميتين مربوطة بحبال قوية حتى لاتتحرك من مكانها ، تجتر غذاءها في سكون وبلادة من لاحول له ولا قوة

.. تقف فى مجموعات بجوار شجرة الجميز العتيقة والوحيدة فى الميدان ، صبى راع يجلس على مقعد واطىء يشـــق بموسى حادة كيس حمل وديع ، يشد الخصيتين من الجذر ، ثم يربط حول مكان الشق بخيط ، يأخذ حفنة من تراب الفرن فى قصعة بجانبه ، يردم على الكيس الفارغ .

صوت المؤذن من بعيد يعطى الصورة طعما ورائحة .. بشاكرة المدبح خارجون لتوهم من عنـــابر الذبح والسميط غارقين فى الدم ، تلوح عليهم ملامح الرجولة والقوة وأيضا امارات السطوة والغضب ، رجال لهم نظرات ثيران لم تذبح بعد .

عمود يقسم اللوحة الى قسمين ، قسم المنازل المتداعية ، وقسم مبنى السلخانة الضخم ذى الواجهـــة المثلثة ، المشهور برائحته المميزة بالدم والروث وأنفاس الحيوانات الداخلة اليه ، صف من الجواميس الصغيرة السوداء الرقيقة الملمس تتحرك في اتجاه السلخانة، يتحرك معها أيضا الحب والدفء .. الحب الذى سيقتل بعد دقائق وثوان ، وكالات وزرائب البهائم المهجـــورة ، خط السكة الحديد القديم .. الذى لايستعمل الآن والذاهب الى الفسطاط القديمة .

الخط الذاهب الى هناك ، حيث الاوســـاخ والرائحـــة العفنة المنشورة تحت الشمس ، وأكوام السلاتة ، وبقايا الشعر والدم . وحيث العذاب والمطحونون ، والعـــراة الذين يعملون ويكدحون ويسترزقون يومهم فى نفس الوقت الذى يقتنى فيه أصحاب المال ، يقتنون أفضل المتع من عرق غيرهم خلف الاسوار القديمة التى كان أول من أنشأها فى الزمن القديم صلاح الدين لتوصل قلعة الحكم الى الفسطاط .

عند شريط السكة الحديد المهجور ، يجلس أولاد صغار نصفهم الاعلى عار فى لحظة راحة قصيرة من داخل عنابر المدبح القديمة .

يتبول طفل بجانب مصنع حقير للخيوط الملونة ، طفلة تشاكس زميلة لها تمتلك عروسا من الطين .

خطوط السكة الحديد مزدحمة بالروث ومخلفات البهائم : الشعر والسلاتة والقرون والحوافر ، حذاء قديم ، بعض الافراخ تتحرك فى زهو وسط السكة الحديد ، اطارات قديمة ، رهط من براميل الكيماويات الفارغة على طول الخط ، مثل بشر ينتظرون قدوم القطارات الذى لن يأتى من هذا الاتجاه أبدا .

الطريق يمر بقهوة عم ميخائيل ، حوائط متربة ، محفور عليها ارقام وخطـــوط لاعبى البصرة ، دار قديم مهجور على حوائطه الخارجية ، رسومات حجاج ويفط مرشحين لم يفوزوا ، مدخنة لقمينة طوب معطلة .

بقالة شعر الجمل التى تقف النساء أمامها فى طابور لاستلام حصتهن من المواد التموينية .. صاحبها كان بشكارا مشهورا فى الاربعينات .. ثم أصابته رصاصة طائشة فى فرح أحد أولاد العم ، سقط الفرح فى الظلمة وضاعت بهجة الليلة ، نقل متأخرا عدة ساعات الى المستشفى القريب ، وكان لابد من بتر الذراع فى سبيل انقاذ حياته . قيل ان الطبيب لم ينجح فى تشخيصه ، خانه التوفيق ، كان مبتدئا يتمرن فى خلق الله .

أصيب شعر الجمل باليأس وخيبة الامل ، ذراعه اليمنى هى كل مكسبه .. كل قوته .. بعد شهور وبعد مساعدات ذوى الشأن من أبناء السلخانة فتح كشك بقالة صغيرا .. فكأن طاقة القدر قد فتحت له ..

زاد حظ الرجل ، فكان ذلك الدكان الذى كان يعلق عليه لافتة باهتة بدون اسم . ولكن من يعرف الرجل عن قرب يعرف مكسبه

الضخم ، والمحل المكدس بالبضائع غير المخزن الذى اشتراه مؤخرا وراء الدكان ، وكان مقبرة أحـــد الصالحين المقربين ، ثم أزيلت حوائطها أو نهبت فى أحد الايام القريبة وبيعت زخارفها وبابها الحديد المشغول وكذلك رخام شواهدها .

ضم شعر الجمل بمساعدة تربى المنطقة جزءا من الحوش الى دكانه وحوطه بالطوب وغطاه بالخوص والطين ليكون مخزنا للبضائع التى يزيد ثمنها فجأة أو تختفى من الاسواق مثل السجائر والشاى والكبريت .. أصبح شديد البخل والتقتير على نفسه .. يقول بعض المقربين ان السبب واضح مثل قرص الشمس ، الرجل تكب فى حياته مرتين المرة الاولى فى ابنه سنقر الذى ولد ولا يرى العالم والثانية فقد جزءا من ذراعه اليمنى .

بعد بقالة شعر الجمل .. مصنع للخيـــوط وبائعو الطعميـة والكشرى ومخـــزن للكيمـــاويات ودكان للحصر ومحل لتنظيف المصارين ثم عمود نور مائل اثر حادث لاحد السائقين المشهورين بعد نصف الليل .. واخيرا السوق القديم العظيم بفتحاته المميزة الذى يخفى الاثم والموت المبكر ، وحظيرة تسمى المدابغ .

— ٣ —

داخل مبنى متصدع ، حوائطه وأسقفه مدهونة بالهباب الاسود وعدد من الحوائط الساندة التى تفصـــل بين حجـرات واسعة وصالات أكبر ، وأحواض متسعة ، تقشر بياض حوائطها وظهر الطوب أو الحجارة المبنية من مئات السنين مبنى واقف بقدرة قادر، متآكلة أرضيته ، كانت منذ زمن حجرا جـيريا أو طوبا أسمنتيا مزدحما بالماء المتسخ ورائحة الروث والعفن وشـــعر الحيوانات المنزوعة بعد اغراق الجلود فى ماء الاحواض لمدة يومين أو ثلاثة أيام حسب أنواع الجلود .

داخل المبنى الذى يملكه « خليل جلابو » أقدم واشهر الدباغين فى المنطقة وبالقرب من المدخل ، حجرة صغيرة يجلس فيها خليل جلابو يراقب العمال الذين يعملون عند البراميل الضخمة ·· خلف خزنة « الفلوس » الضخمة ·

خليل يمتلك ثلاثة براميل ضخمة جديدة ، غير غرفة الموتورات والسيور التى تحرك البراميل ، يلقى العامل الواقف بين البرميلين بالجلود ، الماعز والجاموس بعد اغراقها فى مياه القرض وبعض الكيماويات لمدة ثمان وأربعين ساعة ، جلود الماعز تشبه الخرق الصغيرة ·· البراميل داخلها شـــفاط ودوائر من الحديد لخلط الجلود بالكيماويات والالوان المطلوبة ·

وراء مدبغة خليل جلابو ، فى الفناء الواسع ، عند شارع قبل العيون مستطيلات من الخشب ، مثبت فوقها الجلود التى تم دبغها بالمسامير ، تبقى تحت الشمس يومين أو ثلاثة ·

خلف حجرة مكتب جلابو وقريب من البوابة الضخمة التى لها قفل جبار وخفير مسن لكنـــه غاية فى الدهاء والذكاء ·· يقف

« محسن شنواني » ·· أمهر العمال فى المنطقة ·· طويل ، نحيف مميز ، وجه أسمر قوى ، عينان تشعان بالذكاء والحدة ، محسن يعمل على « ماكينة المقلوبة » ·· ماكينة تشبه ماكينة قص الورق فى المطابع ·

يدق بقدمه على مسطح خشبى أسفل الماكينة ·· يدور الجلد داخل الماكينة ، فى نفس الوقت يراقب بعينيه قشط الجلد وهو يدخل بين اسطوانتين من الخشب لهما نهاية من الصلب ·

بجانب محسن أكوام من جلود الجواميس بعد دبغها فى المراحل الاولى من الصناعة البدائية ، والجلود المغطاة من الجهة اللحمية

بالردة لسهولة عمل عامل المقلوبة ، بجانب صبيان يقومون بمناولته الجلود . من مكان خليل جلابو المرتفع ، يستطيع مراقبة الصبية ومحسن .. والعمال الذين يعملون بين البرميلين الضخمين .. والعمال الذين يعملون عند الاحواض ، يشدون الجلود بواسطة شوك غريبة الشكل ، أعمدة طويلة في نهايتها خطاطيف على شكل هلالين متضادين فوقهما سيخ آخر رفيع من الصلب ..

محسن اليوم مزاجه متعكر .. لايقبل مناقشة أصغر أبناء خليل جلابو .. « فاضل » القادم من التعليم الجامعى ، محسن يطلب من فاضل ألا يقف أمامه وهو يعمل .. أخيرا يثور بدون داع .. يقول محسن للصبية وفاضل يتركه غاضبا : لا ينقصنا الا أولاد المدارس .. ينتهى من قطعة الجلد التى يحركها داخل المقلوبة ببطء ديرميها عند الكوم الآخر . ثم يخرج الى الجو البارد الذى يغمر المنطقة .. صقيع بارد ينفذ الى الصدر ويلمس الوجه ، يخرج الى الشارع الواسع الممتلىء بالفضلات والبراميل الصغيرة ومستطيلات من الخشب المسمر فوقها الجلود .

يخرج الى غرزة عم سنقر المجاورة للمدبغة .. يجلس متأزما غاضبا من سبب لا يدريه ، لا يعرف حقيقته ، يطلب شايا وجوزة .. يأتى أحد الصبية سريعا ليناوله الجوزة وعدة أحجار بها لدعة من المعسل ، فقط تحتاج الى بصمة مخدر من الذى يحمله محسن معه فى جيبه داخل علبة صفيح .

بعد عشرين حجرا مشاركة بين محسن والصبى .. لايجد محسن نفسه فيرسل صبيا آخر من صبيته ليشترى له برشامتين سيكونال من عند عيوشة بائعة البرشام ، والتى تفتح كشكا لبيع المرطبات والسجائر بالقرب من مساكن زينهم ، لا ترضى عيوشة بيع ذلك البرشام الممنوع الا للاحباب خوفا من مداهمة البوليس .

لايعود محسن الى مدبغة خليل جلابو الا بعد آذان العصر وتتعطل الطلبية الذاهبة الى سوق الجلود تماما ، خليــــل جلابو صامت لايتكلم ، انه يفهم البشر بحكم تجاربه وعمره الطويل الذى يزيد عن الستين سنة .

الابن فاضل ثائر على محسن ، يطلب من أبيــه أن يخصم منه نصف يوميته ، لايرد الاب عليه ينشغل بنرجيلته حتى يدخل أنور فارس ، بلطجى المدبغ الذى يبيع له جلود السلخانة بعد ذبحها ، يأخذ حقه مقدما دائما ، يحمل مسدسا يهدد به كل من يريد به سوءا أو يعطل أعماله أو لايعطيه المقدم كل ذلك فى سبيل المحافظة على الجلد أثناء سلخه ، يحتد النقاش كالعادة بين خليل جلابو وأنور فارس الذى يصر على ستة آلاف جنيــــه مقدما قبل بداية أسبوع الذبح فى السلخانة .

أخيرا ينصاع عم خليل جلابو ، ويعطيه أربعة آلاف بدون ايصال، فاضل لايفهم أباه ، يصر على أنها طيبة قلب وعجز .. الاب شاخ ولا يستطيع أن يقوم بالعمل فى تلك الغابة التى اسمها المدابغ حيث يحتاج الى فتوة رجال وهدوء أعصاب وتخويف اذا لزم الامر .

خليل جلابو يشاور لابنه فاضل من بعيد ألا يتدخل مع زميل العمر أنور فارس .. يرسله لمراقبة عمال البراميل والرجال الذين يعملون بالشوك داخل عنابر المدبغة .. أما حساب المال والصفقات .. فليس ذلك من شأنه ، ينصـــــاع فاضل ويترك المكتب وهو غاضب أشد الغضب من حوادث ذلك اليوم .. الذى بدأ بتمرد محسن وتركه العمـــــل ثم ذلك البلطجى الذى يشغل الجزارين ويقبض مقدما أكثر من حقه .

بعد الظهر .. تدخل عربة فارهة الى منطقة المدابغ ، عربة جديدة على منطقة المدابغ حيث يعرفون كل غريب ، تقف العربة أمام مدبغة

جلابو ٠٠ تنزل فتاة فى ريعان الشباب نحيفة مثل مانيكان ، جميلة فى ترفع ، ترفع شعرها الى أعلى بعد قصه بشريط من الحرير الاخضر ، تسأل الخفير عن فاضل جلابو ثم تدخل مثل طائر مفرد داخل عنابر المدبغة ، العمال يتركون عملهم يتفرجون على تلك الغادة ٠

محسن يوقف المقلوبة ٠٠ ليتفحص الحسناء الرقيقة التى صنعت من عجينة خاصة ليست قطعة من عجينتهم ، يسألها عمن تريد ، تنظر له الفتاة بتفحص الغريب ، تتفرج على مخلوقات غريبة ، تبتسم وهى تسأله عن فاضل ، محسن يزوم وهو يشاور ناحية فاضل الذى كان فى هذه اللحظة وراء أحد البراميل الضخمة ٠٠ يظهر فاضل يقبل مسرعا محييا تلك الحسناء ٠٠ يخلع التزلك الذى يلبسه فى قدميه ، يتقدم أمامها ، لتدخل غرفة المكتب حيث يجلس خليل جلابو الذى يقابل الفتاة بكثير من البرود والاشمئزاز ٠

بعد قليل يستأذن فاضل من والده ويترك المدبغة مع الفتاة ٠٠ تتحرك العربة الفارهة ٠ وراءهما بصقة كبيرة من محسن الذى أصبح لايهتم كثيرا باخفاء عواطفه ٠

فى الليل ٠٠ والمدابغ تقفل أبوابها الحديدية الضخمة ٠٠ عاد فاضل ليأخذ عربته المركونة أمام المدبغة المغطاة بستار كبير من القماش ٠

كان الاب يحاور صديقا له أمام المدبغة عندما وجد ابنه ينزل من أحد التاكسيات ، لم يستطع مقاومة انفعاله ٠٠ يعنف الولد أمام الصديق ٠٠ وسمع بعض صبية المدابغ القريبة الحديث بين الاب والابن وحكوا المشهد الحى فى جلستهم فى غرزة عم سنقر وفى قهوة عم مصباح الواقعة فى ميدان حسن الانور حيث يسهر أغلب

الدباغين والعمال حكوا عدة ليال أيضا عن تلك الغادة الرشيقة التى جاءت الى المدابغ لتسأل عن فاضل الطالب الجامعى ٠

ـ ٤ ـ

على ضوء الشموع كان العشاء تلك الليلة : كئوس الويسكى ، اطباق الاطعمة المبالغ فى تقديمها ٠٠

ـ لم تأكل يا معلم الليلة ؟ ٠ قالت « سامية » وهى تدلله بتقبيلة على جبهته وعلى رأسه الاصلع ٠: اختفى أغلب شعر الرأس٠

تلعب بأصابعها الرقيقة فى بقية الشعر الجانبى ، الشعر المصبوغ بعناية فائقة ٠٠ المعلم خليل جلابو يعرف سامية منذ أكثر من خمس سنوات ، التقطها من أحد الملاهى الموجودة بالاسكندرية خلال أجازة قصيرة لمدة يومين ، كانت فى تلك الليلة قد أفرطت فى الشراب على موائد المخمورين قبل أن يطلبها من رئيس الخدمة بالمحل ، جاءت الفتاة التى لم تتجاوز الخامسة والعشرين ٠٠ الجمال يفيض على كل جسدها ، لها وجه قطة صغيرة قد أسكرها الشراب قبل أن يأخذها معه الى الفندق الفاخر الذى ينزل به أمام كل الزبائن وأمام موظف الاستعلامات الذى لم يستطع أن يقول شيئا وهو يرى الورقة بخمسة جنيهات « تندب » فى جيب سترته ٠

من يومها وسامية معه ٠٠ أجر لها مسكنا على النيل فى احدى العمارات التى يملكها ، أثثها بأفخر ما تصبو اليه امرأة داعرة ٠

يأتى اليها كلما كان السبيل مفتوحا أمامه ٠٠ فى تلك الليلة يكدره الكثير ٠٠ ليس العمل كما تظن سامية التى تحملته كثيرا ٠٠ تحملت غضبه وثرثرته عندما كان معها خلال الليالى الطويلة يشكو لها همومه الذاتية وهمومه فى العمل وهموم الاولاد ٠

منذ سنتين لم يقترب منها كرجل الى امرأة ·· ومع ذلك تدلله، وتحنو عليه ، وتعطف عليه ·· تستقبله فى الليالى التى تكون زوجته مع الاولاد فى الاسكندرية ·

أصيب جلابو بمرض فى القلب منذ سنتين ، عرض نفسه على أشهر الاخصائيين ولكن لم تكن هناك فائدة ، أمام مصاعب العمل والقلق اليومى ، فى سبيل التفكير فى اثراء أكثر ومحاولة الاستيلاء على أغلب المدابغ التى يملكها بشر ضعفاء لا يستطيعون الوقوف أمامه ·

سيبلغ خليل جلابو بعد ثلاثة أيام ستين عاما ·· تذكره سامية بأعياد ميلاده السابقة التى قضاها معها ، تسأله سامية ان كانت تلف له سيجارتين من الحشيش لعله يروق ، تشعر اليوم بكدره وهى لاتلح عليه ، فهو سيحكى لها متاعبه مع الحياة ومع هذا اليوم بالذات الذى يحيله الى رجل هرم قارب السبعين ·

خليل جلابو ·· رجل مفرط فى السمنة ، مازال يتمتع بصحة وعافية يحسده عليها كثير من الرجال فى مثل عمره ·

فجأة يسألها اذا كان هناك فحم ·· فهو يريد أن تعد له نرجيلته التى صنعت من الفضة الخالصة ذات الثلاثة أدوار فى الارتفاع ·

لا يكدره هذا اليوم خبر وفاة أحد العمال الذين عملوا معه منذ عدة سنوات فى مستشفى القصر العينى ، كان الرجل عنده فى ذلك اليوم عمل كثير ·· عدد كبير من قطع الجلود المطلوب « تلحيمها » فى ماكينة المقلوبة ·· التى أدخلت حديثا فى قلعة المدابغ الاهلية ، يدخل الجلد على ماسورة حديد يغلفها الخشب ، ليخرج من الاتجاه الآخر ، نظيفا من اللحمية ·· تحتاج الى مهارة خاصة فى العمل ، كان العامل عنده أعباء كثيرة ·· ستة أولاد يعلمهم فى المدارس ··

لذا كان يسهر بعد ورديته الاصلية ، الرجل وهو يدخل احدى قطع الجلود داخل المقلوبة ليشدها باليد الاخرى أخذت الماكينة جزءا من ذراعه وتم نقله على الفور الى المستشفى ٠٠ اصابة عمل ٠٠ ولكن جاء الخبر بوفاته ظهر هذا اليوم ٠٠ لم يستطع الاطباء انقاذ الرجل بعد نزيف دام ثلاثة أيام وتدهور صحته تماما ٠

ليس هذا ما يكدر خليل جلابو انما يكدره عصيان وعقوق أصغر أولاده فاضل الذى رغب دون أخته أن يكمل تعليمه بدخول كلية الفنون الجميلة ليكون مهندسا معماريا ضد رغبة أبيه الذى كان يرجو أن يساعده فى المدبغة بجوار أخويه توفيق وشاكر ، ولم يقف الرجل فى سبيل تحقيق رغبة ابنه ٠٠ ولكن اليوم تأتى له فتاة من طبقة رخيصة ، لم تعرف الفتى الا فى الايام الاخيرة ٠٠ من عائلة مشبوهة الاصل ، تأتى له تلك الفتاة اللعوب فى عربة مكشوفة الى المدابغ ٠٠ لتأخذ ابنه فى رحلة متعة أمام كل رجال المدابغ وعمالها ٠

ذلك الفتى المتمرد ٠٠ الذى كان المعلم جلابو قد تكلم مع أكبر المدابغية الذين يملكون أكثر من ست مدابغ فى شارع قبلى العيون « الحاج عبد الكريم عجور » ٠

تكلم الرجلان بشأن زواج فاضل من ابنة عجور الوحيدة « منال » كانت أمنية جلابو هذا النسب ٠٠ وألا يتأخر الولد عن سماع نصائح والده الذى لا يتأخر أبدا فى شراء عربة جديدة له كل سنة بالاضافة الى رحلات أوروبا كل صيف ، حتى التجنيد ٠٠ استطاع بماله من نفوذ وسطوة على بعض الحكام أن يعفيه منه ٠

ولكن فاضل ذلك الولد الطائش ، يرفض تلك المصاهرة العظيمة التى ستكمل السطوة والقوة للاب وبعده يتوارثه جيل الابناء ، يرفض بسبب فتاة لعوب ، ليس لها أصل ، لم يكن أبوها منذ ثلاث

سنوات أكثر من تاجر شنطة يعمل بين القاهرة وبيروت ، حقيقة الآن بعد الانفتاح أصبح له بوتيك صغير فى وسط البلد ، لا أصل ولا انتماء ، ولكن بعض الاموال المتدفقة على العائلة فى فترة قصيرة.

فترة يشعر خليل جلابو بنغز فى صدره ، هل يكون داء القلب قد عاد اليه مرة ثانية ، يترك نرجيلته العالية العظيمة ذات الثلاثة طوابق ، يطلب من سامية أن تخلع ملابسها ، وهذا ليس بجديد ، أن يأتى اليها ليغسل همومه ، يفضفض بما في نفسه ويخرج نظيفا مرتاحا تماما ، وسامية .. لا تتأخر أبدا عن اجابة طلباته الشاذة الغريبة ، تخلع ملابسها قطعة قطعة .. لتبقى عارية تماما .. يتأمل ذلك الجسد البلورى الصنع يشم جسدها .. يمرغ رأسه الاصلع بذلك الملمس الحريرى .. وسامية صـــابرة .. لقد تعلمت من تجربتها معه .. أنه سيضع لها ظرفا به الكثير من المال فى نهاية السهرة التى تنتهى عادة قبل انتصاف الليل .

ويحيطها الرجل بذراعيه .. رأس فاقد الاحساس على جسد ناصع .. حولهما الشموع الطويلة مثل الزهور العالية .

وفجأة يقف الرجل ، يريد أن يسند نفسه ، يتحرك ناحية حجرة النوم ، لم يتكلم خليل جلابو كثيرا هذه الليلة .

وسامية تعود لترتدى ملابسها ، انتهت نزوة الرجل المسن ، وآن لها أن تستريح لعدة أيام منه ويجوز أسابيع .. تعود لحياتها النشطة التى تحياها بمجرد أن يتركها ذلك المخرف الغنى الذى يظن انه اشتراها بماله .

المجنون اشترى فقط بعض اللحظات بثمن باهظ .. عليه أن يدفعه عند كل زيارة والا هجرته تماما وقفلت الابواب في وجهه .

وسامية ليست ساذجة صغيرة .. فهي تعرف امكانياتها تماما .. لذا كتبته في ليلة خاصة مثل هذه الليلة .. ورقة مسطورة بزواج عرفي .. لا يعرف ما يخبئه القدر من نوازل أو فواجع .

نقلت سامية أطباق الاكل التي لم تمس . كله من ماله وخيره . وثلثي زجاجة الويسكي . .لتعود فتجد الرجل قد فارق الحياة وهو ملقى على فراشها .

لم تصدم .. لم تهتز مشاعرها .. لقد كانت تنتظر مثل تلك الليلة .. كان بداخلها احساس قوي .. احساس امرأة مجربة .. أن هذا سيحدث في احدى زياراته الخاصة المريبة .

لم يضايقها هذه اللحظة الا أن الرجل سيرقد جثة هامدة ، قد تتعفن ويصبح لها رائحة حتى يأتي الصباح .. فهي لم تكن تعرف رقم تليفون منزله ، لتخبر زوجته أو أحد أولاده .. الذين يسكنون معه في نفس البيت .

الرجل حرصا على أولاده وماله .. بنى عمارة متوسطة الارتفاع ، وأعطى لكل ولد من أولاده طابقا فيها .. ليصبح سيد العائلة في المدبغة وفي المنزل .. يبنى هذه الايام طابقا اضافية لاصغر أولاده « فاضل » ليعيش فيه مع ابنة الحاج « عبد الكريم عجور » كما يريد ويصير ذلك الموسر الاحمق الذى يرتب أقدار الناس وأولاده خاصة لم يشأ الرجل في يوم أن تعرف سامية رقم تليفون بيته .. كان يخاف منها بعد طول العشرة .. فقط تعرف رقم تليفون المدبغة .

لكنها تعرف جيدا أن أكبر أبنائه « توفيق » الذى قارب على الاربعين من العمر .. هو أول واحد يشرف على فتح المدبغة في الصباح .. اذن لتنتظر حتى السابعة صباحا .. عندما تسمع

صوت بائع الجرائد ويعم النور كل الاماكن والاشياء ، ويتحرك الصبية الى مدارسهم ، ويعم الشارع الهادىء بعض الضجيج .

من الآن حتى الصباح .. ساعات طويلة مملة .. اتصلت بصديقها الطاهر الذى يعمل كمقاول فى أعمال الكهرباء ، رجل عزب رائع فى الثلاثين من عمره ، اتصلت به فى منزله ولكنها لم تجده ، عادت للاتصال به فى ملهى شيراتون ، جاء الطاهر مهرولا قلقا عليها فهو يحبها حبا يقرب من العبادة ، ولو أنه يعرف تماما علاقتها بذلك المسن المخرف خليل جلابو الذى يملك أكثر من مليون جنيه من الجلود والمال السايب .

وضعت سامية مروحتين تدوران فى حجرة نومها ، وقفلت الباب على جثة الرجل الذى يرقد على فراشها .. ستغير الفرش والحجرة بعد أيام من مال ذلك المخرف الذى لم تكن تكرهه أبدا .. فهو أعطاها الكثير .. وهى لا يمكن أن تكره أحدا يعطيها بكل هذا البذخ .. وهى أيضا زوجته أمام الله وأمام المجتمع وأمام أولاده .. ستأخذ منهم أضعاف ما كانت تأخذ من الرجل نفسه فى حياته .. مداراة للفضيحة .

قفلت الباب .. وأعادت الانوار الى حجرة المعيشـــة الفاخرة بامرأة لها ماض وأيضا لها مستقبل ، أخرجت أطباق الاكل والمزة من الثلاجة وثلثي زجاجة الويسكى .. وجلس العاشقان الصغيران، يحتسيان الخمر ويتسليان بالحديث ليقطعا الوقت على مقربة من جثة ذلك الموسر المسن وحتى يطلع الفجر .

بل لعله سمع ضحكاتها وهمساتها الساخنة ومجونها الليلى وهما يشاهدان النجوم .. تذهب واحد وراء الاخرى ايذانا بفتح الستار عن يوم جديد تملؤه الشمس .. وذلك اذا كانت الروح تشاهد وتسمع وتتطلع .

فلا أحد يدرى حتى الآن بما يحدث بعد الموت ويصبح الموت لغزا مريبا غامضا .. يخافه البشر ويجلونه دائما وأبدا ..

بجوار مسجد سيدى حسن الانور القريب من سور العيون والمدابغ .. أقيم سرادق ضخم ليسع كل المعزين ، تم تكتم الخبر تماما .. نقلت الجثة فى هدوء فى عربة توفيق أكبر أبناء المتوفى ، قيل للوالدة الملتاثة بوفاة زوجها خارج داره بأنه مات عند أعز أصدقائه (عبد الكريم عجور) ولم يعرف بشأن هذه الفضيحة سوى هذين الرجلين .

بعد أن أقيمت مراسم العزاء والحزن بدقة شديدة فى وسط المدابغ حيث جامع حسن الانور ، وبعد دفنه فى ضريح عظيم ، مكسية حوائطه بالقيشانى والفسيفساء ، مقام بالقرب من مسجد السيدة نفيسة وكان أول من يدخله ويدفن تحت أرضه .

بعد العزاء ، بدأ توفيق تجميع أشتات هذه الفضيحة بالاتصال بسامية التى قابلته فى بيتها فى رداء أسود يظهر الكثير من مفاتنها . .سامية كانت تعرف جميع أبناء الرجل من كثرة حديث الاب عنهم .. فهو لا يملك سواهم والمدبغة وذكريات الماضى التى بدأها منذ كان لوالده مصنع صغير للغراء .. تأتى له السلاتة على شكل نشارة من الجلود الى المصنع الصغير حيث تشطف بواقى التلحيم ، تأتى له الاكوام على عربات اليد أو على العربات التى يجرها الحمير ، حيث تشطف لعدة أيام فى أحواض المياه لتتخلص نهائيا من الجير وأحماض المدابغ .. ثم توضع فى قزان ضخم يعمل بالكيروسين لمدة أربع وعشرين ساعة فوقها كتلة من الصلب حيث تتحـــول فيها السلاتة الى عجينة صغيرة صفراء اللون ، توضع فى صناديق مستطيلة من الزنك ، تقسم الى مستطيلات متساوية السمك ، تنشر فوق

سلندرات من الخيوط او سلك الارانب المعدة لذلك وتعرض لاشعة الشمس لمدة يومين ، النظيف يذهب الى محلات الحلويات ، أما المتسخ فيحول الى صناعة الغراء مع المواد المستخرجة من قرون وحوافر الحيوانات .

خليل كان يعمل فى المصنع الصغير مع والده ، لايساعدهما سوى صبى صغير مهمته حراسة المصنع بالليل واحضار السلاتة من المدابغ .

بعد وفاة الاب ، باع خليل جلابو مصنع الجيلاتين ودخل شريكا فى مدبغة أهلية فى الطريق الصاعد الى ضريح أبو السعود الجارحى الذى يقام له كل ثلاثاء مشهد خاص .

بعد عدة سنوات كبر توفيق الابن الاكبر ، الذى لم يكمل تعليمه بناء على نصيحة الوالد ، واشتغل فيها بجانب والده فى المدبغة وهو مازال صبيا غرا ليشرب الصنعة من البداية وعندما مات الشريك واختلف الورثة فيما بينهم لاحت الفرصة لخليل جلابو ليستأثر بالمدبغة وحده فاشترى نصيب الورثة بثمن بخس .

وأصبحت المدبغة حكرا له ولأولاده من بعده .. وزاد ثراء الرجل خاصة بعد حرب الاستنزاف .. اشترى عمارتين واحدة فى المنيل خصصها لاولاده ، والثانية فى الزمالك هى التى تسكن العشيقة سامية فى احدى شققها ، وزاد رصيد الرجل فى البنوك وتوسع فى المدبغة على حساب الارض التى حوله مخالفا خطوط التنظيم والجيرة .

حتى كان أول صاحب مدبغة فى الطريق القبلى ، يستغنى عن العمال لندرتهم بعد فتح المدابغ الحكومية فى البساتين بالبراميل الضخمة لدبغ الجلود ، وأصبح له جلادون وسماسرة خاصون به

وحده لشراء الجلود بعد تمليحها من الاقاليم والصعيد حيث الاسعار رخيصة بالنسبة للعاصمة ٠

كان ذلك قبل أن تنمو الصداقة بين الرجلين الكبيرين « خليل جلابو وعبد الكريم عجور » ٠٠ الصداقة التى بدأت بخناقة عمل ٠٠ يحدث مثلها كل يوم فى المدابغ فى سبيل السطوة والغنى والتحكم فى أرزاق الناس ٠٠ عبد الكريم عجور هو الرجل الوحيد فى المنطقة الذى يحتكر شراء الجلود من الاقاليم وفى السلخانة الام ٠٠ لا يستطيع أحد أن يغمض جفنه ويشترى من التاجر مباشرة قبل وساطته ٠٠

كاد أن يدب بين الرجلين صدام يتحدث عنه رجال وصبية المدابغ طويلا ٠٠ لان خليل جلابو تجاسر وأصبح له موردون خاصون من الاقاليم بعيدا عن موردى العاصمة ٠٠ كادت أن تنشب المعركة من مقاطعة جلابو ومقاطعة عجور ٠٠ لولا بعض الاصدقاء بين الطرفين الذين رأوا أن يغلقوا الشجار والعنف داخل أسوار العيون بعيدا عن الشرطة والمتطفلين من المسئولين ٠

بعد المصالحة اتفق خليل جلابو الذى كان أكثر صبرا وتوفيقا من عجور السريع الغضب والهيجان على شراء الجلود من مخازن عجور فقط والالتزام بذلك ٠٠ ودخلت مدبغة جلابو لاول مرة فى تاريخها جلود بيع شرطة وهى الجلود الخالية من الشقوق « الجلود الخارجة من السلخانة الام » بعكس الجلود القادمة من الريف والصعيد ويطلق عليها بيع الفلاحى وغالبا ما يكثر بها الشقوق ٠٠

وبعد الصداقة ٠٠ التى بدأت بحسابات ومكاسب بين المقاطعتين ارتبط الرجلان ببعضهما البعض حتى فى مسرأتهما الليلية المسروقة من وراء نسوة الدور ، حتى أن عجور هو الوحيد الذى يعلم علاقته بسامية وزواجهما العرفى ٠

عجور طيلة سنوات زواجه لم ينجب سوى فتاة واحدة متوسطة الجمال ، اختارت كلية الطب لتكون ميدانها فى الحياة المستقبلة .

قنع عجور بهذه الابنة الوحيدة ولم يرتض أن يتزوج على زوجته الاولى التى كانت من أسباب سعده ، وغناه ، لذلك وفى الايام السابقة لوفاة خليل جلابو .. رغب أن يزوج ابنته لاحد الشبان المعروفين بأصلهم الطيب على أن يكون له أيضا علاقة بمقاطعة المدابغ حتى يدير مدابغهالست فى شارع قبلى العيون بعد وفاته ففكر فى اختيار ابن صديقه جلابو ، فلمح له بذلك فى قعدة انبساط ! فكانت مفاجأة أكثر من رائعة لخليل جلابو الذى كان المال نبراسه .. واعتبر هذا اليوم .. يوما مشهودا لعائلة جلابو .

ولكن القدر أراد شيئا آخر غير ما يتمناه جلابو وعجور ، فمات الاول قبل أن يحقق أمنيته بهذه المصاهرة النبيلة ، مصاهرة المال والسطوة وتجميع رأس المال فى عائلة واحدة .

ـ ٦ ـ

محسن : أصغر أبناء المعلم شنوانى ، أحد أصحاب المدابغ الصغيرة فى الزمن القديم ، بدأ شنوانى حياته بمدبغة هزيلة فى البيرقدار بجوار بوابة المتولى قبل انتقاله فى الستينات الى مقاطعة المدابغ خلف سور العيون .

لم يستطع الرجل الصمود كثيرا فى عالم الخسارة والمكسب وخاصة فى وجود عجور وجلابو والسلطان البشبيشى سلطان المدابغ السابق .

اضطر الرجل أن يقفل المدبغة الصغيرة التى تجاسر وفتحها فى شارع بحرى العيون ، وذلك بعد أن أحجم كثيرا من سماسرة الجلود عن البيع تحت تاثير الرجال الكبار فى السوق ..

لقد انتهى عصر الدباغين الصغار ‥ وصدوا الابواب في وجوههم ‥ قبع الرجل فى داره مريضا من الكمد ، يقضى بقية عمره مشلولا حتى الموت ‥ الحسنة الوحيدة التى بقيت له أنه قام بتربية أولاده أفضل تربية ، أدخلهم الجامعة جميعا ، عشرة أولاد بين ذكور وآناث، كان ذلك حلمه القديم الحلم الذى أصبح كاذبا أو وهمـــا بعد السبعينات ٠

الوحيد الذى لم يرغب فى التعليم : هو أصغر أولاده ‥ نتيجة لتدليله الزائد عن الحد ، ولقربه من أبيه فى ميدان المدابغ بحكم السن قبل أن يغلق أبواب المدبغة الصغيرة ٠

امتهن محسن العمل فى المدابغ بعد أن شب وكبر ، برع فى العمل على ماكينة المقلوبة ، كان مرشده فى ذلك المعلم رشاد الذى كان سبب موته نفس الماكينة التى برع فى العمل عليها ٠

وصل المسار بمحسن الى العمل فى مدبغة جلابو ، كان خليل جلابو يعامله معاملة خاصة من أجل أبيه الراحل ، وما كان يتمتع به من طيبة قلب ونزاهة فى التعامل لم تدمه فى ميدان المدابغ ٠

هاجر أغلب أخوته المتعلمين بعد عصر الانفتاح ، أو أكذوبة الغنى التى جن بها الشباب والرجال وأصبحوا لا يحتملون البقاء على أرض الوطن ‥ أرض الوطن ليست صالحة الآن الا من كان معه مال كثير ٠

« الفلوس تجيب الفلوس » ‥ وباتت النفوس تعيش وتنام الليل وفى عقلها النزوات أو الحقد لمن لا يستطيع ذلك ٠

الوحيد الذى بقى على أرض الوطن « حامد » أرق الاخوة وأكثرهم محبة وتعاطفا ‥ مدرس أول فى احدى مدارس العاصمة ‥ تزوج

منذ عدة شهور من زميلة له فى العمل ·· من أسرة رقيقة الحال ، لم يشده اليها سوى جمالها الطاغى وأنوثتها المتفجرة ·

عاش محسن مع أخيه الباقى من العائلة الكبيرة فى منزل الاسرة المهيأ على أفضل وسائل المعيشة فى الحى القديم فى مصر القديمة فى عمارة متواضعة بناها الاب الشنوانى قبل أن تتدهور الاحوال وتؤدى به الى المرض ·

محسن ·· شاب فارع الطول نحيف ·· أميل الى السمار الخفيف ·· متناسق التقاطيع ·· ورث عن أبيه اتساع العينين وصرامتهما فى وجه مثلث وذقن مدبب وزاده الشارب كعادة الشباب فى هذه الايام قوة وسطوة ورجولة ·

وكان لتدليل محسن المبالغ فيه أثر فى أخلاقه اللاهية غير المسئولة ·· من يريد أن يعيش يومه فقط لا يحسب فى ذلك مستقبلا ولا ينفعه ماض ·

كان يقبض من مدبغة جلابو جنيهين فى اليوم ·· يأخذ راتبه ظهر كل يوم سبت ·· يعمل أيام الاحاد فى حالة زحام المدبغة بالجلود المطلوب دباغتها ، يأخذ ضعف الاجر ·· كل هذا كان يذهب لحساب ملذاته الشخصية ·· من مخدر ونسوة ضعاف القلوب متعطشى الاجساد ، وعرفت ملذاته أيضا كعادة الشباب فى السنوات القريبة ادمان الاقراص المخدرة حتى أصبح لا يستطيع أن يبدأ العمل الا بعد تناوله قرصا أو قرصين من الاقراص الغالية من عند عيوشة بائعة المثلجات ·

يربطه حب مراهق قديم بمنال ابنة المعلم عجور من قبل انتقالهم الى حى الزمالك فى الستينات أيام أن كان معلمو المدابغ يتخذون من مصر القديمة سكنا لعائلتهم ·· أغلبهم بقيت لهم عماراتهم التى

بنوها من عرق وجلود المدبغجية الصغار الذين يعملون فى اليوم عشر ساعات ‥ وسط أحواض القرض والكيماويات ‥ يغتنون مبكرين وترتفع أدوار العمارات القديمة فى مصر القديمة وفى الزمالك ومصر الجديدة .

كانت منال ‥ زميلة لمحسن فى احدى المدارس القومية الخاصة خلال المرحلة الاعدادية ‥ كان بينهما حب مكتوم ‥ لا تعرف به العائلتان قبل انتقال عجوز لسكن الزمالك ‥ وعدم استطاعة محسن الشنوانى تكملة تعليمه بالرغم من توسل الاب ألا يخيب ويكون أقل اخوته شأنا .

قبل وفاة الاب شنوانى كتب نصف بيته فى مصر القديمة لاجل محسن ‥ لم يحقد يومها أحد من الاخوة لتصرف الاب ‥ محسن كان آخر العنقود وحبيبا خاصا الى قلوب كل الاخوة ‥ الذين أنهوا تعليمهم وتزوجوا وأنجبوا ‥ كان محسن أصغر من بعض أبناء الاخوة ‥

عاش محسن فى منزل الاب أو منزل أخيه حامد ‥ بما يدره نصف البيت ‥ لا يتحمل غذاء أو سكنا ، حتى ملابسه أحيانا كان يشتريها له أخوه حامد الذى رغب كثيرا فى اصلاحه بدون فائدة .

حاول أن يجعله يوفر بعض المال الذى يكسبه ‥ وخاصة فى السنوات الاخيرة بعد ما زاد وتضاعف أجر العامل المتخصص عن مرتب الجامعى القديم .

لم يكن فى يوم يشغله شىء عن اصدقائه من شـــباب المدابغ وملذاته ونسوته اللاتى يغيرهن فى المواسم ‥ كما يغير أحد ملابسه ‥ أن يكره احدى قطع ملابسه بدون سبب .

بعد عدة شهور من زواج حامد ٠٠ حدث الشيء المفجع الثاني في أسرة الشنواني بعد وقوع الاب مريضا بالشلل ٠٠ وهو خيانة محسن لأخيه الطبيب الرقيق المشغول دوما بالدروس الخصوصية٠٠ لايحضر الى المنزل الا متأخرا في سبيل لقمة العيش التي أصبحت صعبة المنال ، خيانته مع زوجته البالغة الانوثة المتفجرة لغياب زوجها في سبيلها وسبيل أبناء المستقبل ٠

رغبت المرأة كثيرا فيه واشتاقت له اشتياق زوجة فرعون ليوسف ٠٠ وفعلت المستحيل حتى وقع الشاب ٠٠ وأصبح خائنا للبيت وللاخ والضمير والشرف ٠

ولكن سريعا ما ملها كعادته ٠٠ ولكنها لم تمله ولم تنصرف عنه ٠٠ بل زادها بعده عنها اشتياقا وجنونا وهياما ٠٠ حتى كادت تضحي بالبيت من أجل أن يعود الوصال مرة ثانية ٠٠ ولكن كان ذلك صعبا ومستحيلا بالنسبة لانسان يعيش يومه ، لحظته ٠٠ لا يرى الامس أبدا ٠٠ ولا يفكر فيه ولا يتصور نزوة طارئة تستطيع تكبيله ومنعه من الحركة ٠٠ فهو يكره القيد مهما كان لامعا براقا ٠

ساءت علاقة محسن بفاضل جلابو بعد وفاة الاب جلابو ٠٠ وأصبح يهدد كل يوم بترك المدبغة ٠٠ لولا تهدئة توفيق وشاكر عند كل خناقة تحدث بين محسن وفاضل ٠

في داخل محسن حقد دفين على ملوك المدابغ وخاصة الشباب منهم ٠٠ هؤلاء الذين ورثوا الغنى بدون مجهود يذكر ٠٠ فوجدوا الملاعق الفضية والاطباق الذهبية والعربات الفارهة والبيوت المستقرة الناعمة في أفضل أماكن المدبغة التي تزدحم يوما بعد يوم وتسوء شهرا بعد شهر ، ولكن بقيت لهم الاموال يعدونها رزما ٠٠ وهو ما زال يعمل كعامل أجير على ماكينة المقلوبة ٠٠ قليل من يستطيع

العمل عليها واتقان العمل مثله ومثل رشاد الرجل الذى مات فقيرا أجيرا فى مستشفى قصر العينى .

كان محسن يغلى بالحقد والضيق كلما لمح فاضل يغير عربته كما يغير قميصه .. وكلما رأى فتاة حسناء تأتى فى طلبه .. لماذا يأتى له كل هؤلاء الفتيات الحسناوات فى ميدان عمله .. وهؤلاء لايزيدون عنه جمالا أو مهارة أو حتى ذكاء أو كياسة .

ما الذى يجعله فائزا والذى يجعله خائنا ، يجعله الاول نظيفا غنيا ينفق بالآلاف والثانى غير نظيف .. غارقا لنصفه بلزوجة السلاتة ومياه المدابغ الملوثة .

الاول تريده ، تتمناه فتيات ونسوة عندهن عربات ويمتزن بالجمال الغارق فى الالوان المعطر بأفضل الروائح .

والثانى تتمناه نسوة فاتتهن الحياة الشريفة .. يردن أجرته اليومية .. قبل أن يردن جسده الفتى ، يردن الجنس ساخنا قويا مغلقا بالدخان والخمر الرخيصة .

الاول عنده حب كل الدنيا .. أصابع ذهب تشير على أجمل الفتيات فيركعن عند قدميه ، والثانى أصابعه من زنك ، لا تنفع فى هذا الزمن الذى يقيم كل شىء بالذهب والماس .

ـ ٧ ـ

بعد ثلاثة شهور من وفاة المعلم خليل جلابو .. ذهب توفيق الابن الاكبر للمتوفى الى سامية زوجة أبيه .. كان مسلحا بأحاديث ونصائح المعلم الكبير عجور .. فى كيفية معاملة تلك الغانية التى سبق لابيه أن التقطها من الشوارع الخلفية حيث المواخير الرخيصة

تكثر بشدة ، أسكنها قصرا أعطاها توقيعه على ورقة مسطورة ..
لتلهو بها كما تشاء بعد وفاته .. تأخذ منهم باليمين .. وتعطيه
بالشمال الى عشاقها .. الصبية الذين تلتقطهم بدورها من نواصى
الشوارع بعد منتصف الليل ..

توفيق ، بعكس أبيه قليل الحيلة .. قليل التجربة مع النساء
.. أخرجه أبوه من المدارس قبل أن يأخذ الاعدادية .. ليتشرب
دمه الصافى بالصنعة مبكرا .. زوجه وهو فى بداية العشرين من
زوجة صالحة جميلة قادرة على الخدمة من عائلة مشهورة بالتقوى
والورع .. أبوها كان شيخ القراء فى الحى القديم . أنجب من
زوجته ولدا وبنتا ، قنع بهما ، وسعد بهما قلبه وارتاح باله .. أول
انسان يفتح المدبغة التى وكل أبوه اليه العمل فيها ، تاركا المدبغة
القديمة المجاورة والتى لا يفصلها عن الجديدة سوى حائط نصف
طوبة بارتفاع عشرة أقدام .

كان أبوه يعلم بتجاربه وخبرة السنوات فى عالم المدبغة قلة
حيلة الابن الاكبر ، لذا كان يشاركه الاشراف على المدبغة الجديدة
والتى كان ينقلها بالتدريج من مدبغة تعمل فى القرن التاسع عشر
الى مدبغة فى القرن العشرين .. استبدال الانسان بالماكينة ..
كان أيضا يرتاح باله ونفسه الى ابنه المتوسط شاكرا .. لذا وكل
اليه كل العمل فى المدبغة القديمة بمفرده .. أما ابنه الاصغر فاضل
فكان يعمل فى أجازته فى المدبغة الجديدة التى تستخدم الآلات
والماكينات والبراميل والمقلوبة .

لم يستطع توفيق وهو فى طريقه الى الغانية الا أن يقارن فى
لحظة بين ما كان يدفعه المرحوم فى سبيل متعته وبين ما كان يأخذه
هو فى سبيل اشرافه على المدبغة الآلية .. كان يحسد المرأة على
حب أبيه المتعجرف الضخم وصرفه عليها لمجرد سهرة جامحة .

افترق الاثنان توفيق وسامية على اللقاء في موعد آخر ·· ستحدده هي بعد سؤال المحامي الخاص بها ·· لم يعرض عليها ما كان يريد ·· لم يقل لها ما كان يرتبه من حوار ·· لم يقل ما حفظه له المعلم عجور بشأن ترك الشقة والتنازل نهائيا عن الورقة المسطورة الموقعة في سبيل مبلغ ضخم من المال يعينها على الحياة وتستطيع به أن تبدأ حياتها من جديد مع شاب تحبه في مثل عمرها ، لم يقل شيئا لان بداخله شيئا مخيفا رهيبا ·· انه يتمنى هذه المرأة ·· انه لم يتمتع فى لحظة من لحظات عمره التى أوشكت أن تقول عمره الحقيقى والذى يخفيه شكله الطفولى ·· بمثل هذه اللحظة التى قضاها مع هذه المرأة اللاهية ·

انها قطعا امرأة من نوع خاص ·· تلك التى استطاعت أن توقع الاب المهاب ·· والتى استطاعت أيضا أن تعطيه السعادة والمتعة خلال الساعات والدقائق التى جلس فيها معها ·· يشاركها الحديث والمخدر الرائع الذى قدمته له والعطر والوجه الحسن والشفتين الناضجتين اللتين لا يريد سوى عصرهما · وهذا الصدر المكشوف الواضح المعالم ·· صدر صغير مكور كأنه لم يمس بعد ·· وهذا الجسد السمهرى ·· وهذه الملابس وهذه الاناقة التى يحسها ويشمها من وقت وصوله حتى موعد انصرافه عنها ·

انها امرأة جذابة لا يجد الانسان مثلها بسهولة ، وهذه الساعات المحرمة كانت أجمل ساعات حياته ·

فارقها وهو حزين ·· فارقها من أجل موعد آخر ستخطره به بعد أن تتصل بمحاميها لانهاء متعلقاتها نهائيا ، لماذا نهائيا ·· ألا يعود يراها ثانية ·· الا برفقة محام عجوز سخيف ·

بعد أيام اتصلت به وذهب اليها ·· قلبه يدق بعنف ·· مثل دقات فتى فى العشرين ·· ذهب لمقابلتها فى بيتها على النيل بعد

الحاج مستمر مطلف بالتهديد والوعيد . قابلته المرأة فى بيتها .. مرتدية ثوبا أسود من الدانتيل الذى يبين كل مفاتن الجسد البض الشهى .. رداء مفتوح من عند الصدر ، ذو أزرار مفتوحة لتكشف مفاتن ثدين بارزين مثل ثمرتى تفاح فاخرتين .. تغرى المشاهد بالتامل والعبث .

قابلته بابتسامة عريضة مرسومة .. شفتان رائعتان ووجه غارق فى العطر الانثوى .. دللته .. قالت له انها لا تريد أكثر من حقها .. وجعلته يشاهد الورقة المكتوبة الموقعة بامضاء وخط الاب .

حاول توفيق أن ينهى المسألة سريعا كما نصحه الحاج عجور .. ولكنها كانت أكثر منه وعيا وتضجا . لفت ودارت ودعته على كاس ويسكى ومائدة مزدحمة بالمأكولات كانت تعرف جيدا توفيق وبقية الاخوة من أحاديث الوالد التى كانت تسمعها مضطرة صاغرة .. فى الليالى الرخيصة التى كان يحضر فيها لديها ، يفرغ كل ما عنده وخاصة مشاكله .. كانت تعرف توفيق أكثر ما يعرف نفسه ..

اعتذر توفيق عن كاس ساحية .. اقترحت المرأة سيجارة حشيش .. اعتذر أيضا .. اقترحت أيضا أن تعد له برطمان الحشيش .. كانت تعرف أن توفيق ليس له من مسرة سوى تدخين الحشيش على البرطمان . .ولم تمض دقائق حتى أحضرت له الفحم المشتعل والجوزة الخاصة بالمخدر .. وأخذت تعد له بأصابع مدربة حجارة المعسل .

فى أثناء ذلك كانت تستعرض مفاتنها .. توفيق داخله كان يغلى بضديد من المشاعر تجاه ذلك الوالد المخرف الذى كان يتمتع بهذا الجسد الشهى وهذه الجلسات الخلابة .. وهو الذى فى سن الشباب

كان ينتهي من العمل الشاق في المدبغة ليذهب جثة هامدة ، راقدا على فراشه حتى صباح اليوم التالى لا مسرة لديه سوى ليلة الاحد عندما يجتمع في منزل أحد أصدقائه ·· يدخنون المخدر في السر خوفا من أن تصل أخباره الى الاب المخيف الرهيب ·

طالت الجلسة ·· ولم يصل توفيق الى حل مع المرأة ·· فقد شاهد بعض الصور التى تجمعها مع المرحوم ، وايصالات المنزل ودفتر مصاريفها الذى كانت تأخذه من الوالد ، في سبيل أن يبقى الامر طى الكتمان · لا يعرف به سوى صديقه الشيخ عجور ·

ولم يجد المحامى في انتظاره ·· انما مائدة عامرة بكل أصناف الطعام الذى يحبه ·· كأنها عاشت معه ·· عرفته عن قرب ·

ودارت الجوزة ·· والعطر الذى يفوح حوله ·· والمرأة تستعرض مفاتنها كأنها تثيره ·· تدعوه للدخول معها في لعبة الحب المحرم ·· وخلال الجلسة الطويلة ·· لم يتحدث عن المرحوم الا قليلا ·· وانما تحدث كل واحد عن نفسه وحياته السابقة قبل أن يلتقيا ·· وكذبت ما شاءت وأوهمته بالكثير مما لم يحدث لها في حياتهـــا البائسة قبل أن تلتقى بالمرحوم ، وشعر بالعطف والرثاء لهذه المرأة الرقيقة المخلوقة من طينة أخرى ·· طينة خاصة ··

وفي نهاية اللقاء ·· طلبت منه بعض المال لاجل المصروف ولاجل ايجار الشقة وهي تكاد تذوب خجلا ··

ولبسته الشهامة والرجولة ·· وأخرج بسرعة لم تتوقعها المرأة نفسها دفتر شيكاته ، وطلب منها أن تكتب ما تريد على بياض ·· بعد أن أدار وجهه الناحية الاخرى حتى لا يرى بالتمام ما تريد ··

عند الباب ·· قبلته على جبينه ·· وارتبك وخجل من هذه المرأة المحسنة الرقيقة المشاعر ذات القلب العامر بالحب للآخرين ·

وخرج الى الهواء منتعشا .. يريد أن يطير بعربته فوق عربات الآخرين لعله يصل الى النجوم ، يقطف نجمة يعود بها اليها .

- ٨ -

ترك وراءه ميدان سيدى حسن الانور .. والوجه المستدير المكحول العينين الذى ملكه شيطان الغواية والحب المحرم .

يستطيع أن يتابع خيانة الاخ الذى عطف عليه وأشرف على تربيته وآواه فى بيته .. ولكن تلك الداعرة المسحوقة بالرغبة والجنون الطائش ، مازالت تصر على أنها ستهجر البيت وستهجر الاخ والزوج اذا لم ينصع لاوامرها وغوايتها .

كيف يعطى جسده لامرأة تريده بالقوة .. بالاصرار .. لامرأة ذهبت معه الى الحرام فى لحظة ضعف .. يترك المكان المزدحم بالسكان .. ثلاثة براميل ومرحاض ، وحوائط يكسوها الهباب ، وأقبية وبواقى أديرة وبيوت طينية حول جامع عمرو بن العاص .. أكوام من التراب ، مقابر النخال ، لعبة السيجة يلعبها أربعة أولاد عاطلون من العمل .. أقبية متتالية تغطى واجهة جامع عمرو بن العاص ، سقالات خشبية حول الواجهة وأعمدة تحيقة لها تيجان كورنثية تظهر من مستطيل فتحة مقهى تظهر بعيدا ، صلبان جبانة الروم ومار جرجس والمعلقة ، رصات المواسير الفخار والبلاليص الحمراء وأحواض الزينة المزججة بالاخضر والاسود ، وقصارى الزرع المكومة مثل طراطير الموالد فوقها لوحة منقوشة على الطراز الاسلامى القديم .

وسعال شديد من تأثير البورى الشديد الوهج الملوث المياه .. فى قلبه دقة ألم عنيفة لما فعله مع أخيه .. وصل الى القرار الذى يخصه .. لن يعود ثانية الى الدار المحرمة ، لوث نفسه وداخله عند بابها .

ما الذى جعله بهذه الحساسية بعد ركود دام سنوات فى العربدة والالتصاق بنسوة ممتلئات دفئا وحبا كاذبا فى سبيل قروشه التى يعرق طوال اليوم ليجمعها .. يأخذها من هؤلاء الاثرياء المنمقين الذين أصبح يكسو وجوههم الخيلاء والغرور وحيث القروض والجنيهات تجمع أطنانا يوما بعد يوم .. بعد شراء الجلود وبعد بيعها مدبوغة لوكالات صنع الاحذية والحقائب .

وخاصة ذلك المعتوه الخرافى التكوين الانيق اللزج الملمس الذى يتكلم من أطراف أنفه الذى يشير بأصابعه : فتأتى له كل الامانى ، تتحقق كل الاحلام .

ذلك المعتوه فاضل .. الذى تربع على عرش الثروة ولم يصنع شيئا ، لم يرهق نفسه يوما فى سبيلها ، أخذ ملعقته الفضية فى بداية عمره والآن يستبدلها بملعقة من البلاتين ، والثروة تأتى بالثروة ، لا تحتاج الا لأنامل فتى مخنث ، يدوس على باقى البشر والعمال والاولاد المراة .. وليذهبوا هم الى الجحيم الى المصحات .

فى عقله غل شديد ، فى قلبه حقد دفين .. لو استطاع فى يوم أن يضع ذلك الفاضل فى حوض الكيماويات الشديدة التركيز .. الحوض الاصلى الذى يبدأ فيه ذوبان البلاموط والموزا .. ثم ينقل المخلوط الى أحواض دبغ الجلود وازالة اللحمية والشعر .

أحواض قادرة على اذابة الجلد السميك للحيوان .. فاذا كان بتركيز شديد وقوى ، أليس ذلك المحلول قادرا على اذابة انسان حقير وضيع ركبه الغرور والصلف .. يعامله بعد وفاة الاب كما يعامل الانسان حيوانا حقيرا مدنسا يكرهه .

لن يترك مدينة جلابو كما حاول أن يتركها بعد شجاره منذ يومين مع فاضل كما نصحه زملاؤه يترك العمل فى هذه المدينة الى مدينة

أخرى مثل مدبغة عجور أو مدبغة السلطان الكبير البشبيشى ، ولكن لسوء حظه وجد أن المدابغ الكبيرة التى تستخدم المقلوبة ترفضه .. ترفض ذلك العامل الماهر بعد وفاة المعلم الكبير رشاد فى مهنته .

وصلت سمعته قبل أن تصل أقدامه الى عتبة أبواب تلك المدابغ الكبيرة المبنية فى بيوت ضخمة .. وصلت سمعته الخاصة بالتمرد والثورة وتحريض بقية العمال أن يطالبوا بأجورهم مضاعفة أثناء العمل الاضافى ، يطالبون أيضا بوجبة غذائية وكيلو لبن كل يوم أسوة بالقطاع العام .

قالوا له بصراحة : لا نستطيع أن نأخذك عندنا اذا تركت مدبغة جلابو .. هناك اتفاق بيننا .. « اتفاق جنتلمان » .. اتفاق سادة مع زملائهم ، لن نستطيع أن نأخذك اذا تركت العمل فى المدبغة التى تربيت فيها مهما كان اسم أبيك وصناعته القديمة بيننا .

سيقبع اذن طول عمره فى مدبغة جلابو .. يعود لها هذه المرة ككلب أجرب ، اذا أعطوه كسرة جافة ، عليه أن يأخذها ويشكرهم .. اذا رموا له ببعض القروش فليركع جيدا حتى يستطيع أن يلتقطها . الجميع يرفضه والمدابغ الصغيرة تخافه أكثر من المدابغ الكبيرة .. لن يستطيع أحد أن يشغله .. فقط مدبغو جلابو مفتوحة له أبوابها ولكن بشروطها وبتعليمات وأوامر ذلك المأفون المدعو فاضل .. ليركع ويضع قدمه فوق ظهره .. ليعمل طول النهار وفى أيام العطل وفى المساء والا فلن يجد أجرته ولن يجد ثمن نزواته ومخدره

اذن لتبق طول عمرك مسيرا لملذاتك ولضعفك الانسان وخرابك العقلى .. لقد ولدت من طينة أخرى غير طينة السادة .. طينة هشة .. طينة فقر ووحشة وغربة .

لن يعود أبدا الى منزل أخيه الذى دنس فراشه ، لن يعود ولو تركته تلك المرأة الجهنمية .. لو تركته لكان أفضل به وأرحم .

ماذا يفعل وهو لا يريد أن يطأ بقدمه تلك « العتبة » المنحدرة الى مدبغة جلابو .. حيث دوائر البراميل الضخمة والاحواض السيلة وأحواض البلاموط.. وأكوام السلاتة وخطاطيف الكرمارا والدرجات المؤدية الى أعلى حيث ماكينات البروتو الخاصة بتبسيط الجلد .

لا يستطيع دخول المكان .. بالرغم من أن الاخ الاوسط شاكر جلابو أرسل فى طلبه .. أرسل له صبيا يحبه وكان يعلمه العمل على المقلوبة .. يرث العمل فوقها بعده اذا حدث له حادث منتظر وهو مشغول الفكر فى حالة مع تلك المرأة القابعة فى البيت أو مع منال حبه الطفولى الشهى التى أوشكت على الانتهاء من دراستها فى كلية الطب .. وستزف قريبا الى ذلك الخبيث فاضل جلابو .. سمع الخبر ولكنه لم يتحقق منه لعلمه بدعارة وثعلبة ذلك الفتى الغر ..

أرسل له شاكر فى طلبه ، سيعطى له ما يريد ، سيعمل على المقلوبة ولكن ليس تحت تعليمات الاخ الاكبر توفيق أو الاخ المراهق فاضل ، سيعمل تحت أمرته هو .

أرسل له يذكره بأيامهما السابقة عندما كانا أولادا صغارا يلعبان الكرة الشراب فى أرض يعقوب .. ولدان متقاربان فى السن .. أرسل له رسالة مع الصبى .. وسينتظره أن يأتى له فى أى ساعة

ولكنه لا يستطيع دخول المدبغة .. بعد أن عرف الجميع الخبر وهو أن المدابغ الكبيرة الرئيسية والمدابغ الصغيرة ترفضه .. ترفض مجهوده بأى ثمن بخس أو مرتفع ، ترفض محسن شنوانى أشهر عامل على المقلوبة فى المدابغ كلها .

أبعد فى عصبية بورى الصباح .. طلب شايا غامقا اقرب الى السواد ، وأخرج قطعة أفيون ووضعها على لسانه لعلها تهدئه بعض

الشيء ، ترطب أعصابه ، تمسح على مفاصله ٠٠ تنقله الى حياة ناعمة جميلة مثل أمواج البحر ، ولكنه لم يستطع أن يعوم على سطح البحر الا ثوان قليلة ٠٠ بعدها يعود الى النزاع القديم بينه وبين مشاعره والخصام المتأصل بينه وبين نفسه الهشة المحطمة ، ماضيه القديم وحاضره البائس والمستقبل المبهم الكئيب ٠

لن ترتاح نفسه الا اذا أغرق ذلك المعتوه فى حوض البلاعوط ٠٠ يدقمه دفعا بشوكة المدبغجى المقوسة ٠ وجاء له الصبى مرة ثانية ، ولكنه لم يذهب معه ، جلس حتى العصر فى المقهى المطل على ميدان عمرو بن العاص ٠٠ يشاهد الصلبان والاعمدة المنقوشة الرؤوس بالاوراق اللامعة من الحجر المدهون باللون البرونزى ٠

والسماء تتلون فى دقائق الى لون البنفسجى القاتم المؤدى الى الليل ، حيث عذابه وضياعه ومفره الى الهلاك والادمان ٠

ـ ٩ ـ

هجرت زوجة الاخ منزل الزوجية بعد تأكدها من ترك محسن الدار ، بعد أن خرج الزوج الى العمل جمعت ملابسها وأشـــياءها الخاصة ورحلت الى بيت العائلة غاضبة بدون سبب ، متأزمة بدون أزمة سابقة ٠ حقيقى أنه حدث بينهما حوار فى الساعات الاخيرة فى الفراش حول محسن ٠٠ وهجرته الاقامة فى البيت ٠٠ كانت تستحث الزوج أن يبحث عن أخيه فى احدى مواخير الليل أو عند احدى النساء المشبوهات ٠٠ وقال لها الزوج ٠٠ أن محسن كبير بما فيه الكفاية ، وأنه لا يستطيع أن يجعل من نفسه رقيبا على تصرفات أخيه الى الأبد ٠

فى نهاية الحديث قال لها الزوج ضاحكا : لو تهتمين بى نصف ما تهتمين بأخى لكنت أسعد الازواج ٠

نامت والسكاكين تقطع فؤادها والقلق ينغصها فى أعمق الاعماق فى الفجر استيقظت أو لعلها لم تجد النوم المستمر ، تذهب الى حجرة محسن ، تفتح الباب فى هدوء ، لعلها تجده نائما يغط فى نومه بصوت مرهق عال كعادته ، ولكنها وجدت الفراش مرتبا نظيفا .

فى الصباح .. لم يعد فى استطاعتها البقاء فى عش الزوجية .. لو بقيت ساعات أخرى فستجن .. لن تستطيع أن تنام مع زوجها فى فراش واحد .. لن تستطيع أن تشاهده من قرب بعد رحيل محسن عن المنزل .. كان محسن عندما نوى أن يهجر منزل الاخ أو منزل العائلة القديم .. قد أخذ بعض ملابسه أو أهم القطع من دولابه .. الاشياء التى يحبها ..

عاد الزوج عند الظهيرة ليجدها قد هجرت منزل الزوجية .. لم يكتشف السبب ، أخذته الاوهام والتخيلات .. هل أغضبها أمس .. هل ضايقها بكلمة على الصباح .

فى منزل العائلة .. كان الموقف أعجب ، الاب والام والاخوة لا يعرفون سبب رجوعها ولا يعرفون سبب غضبها المفاجىء ..

العائلة فى حيرة .. والزوج مسكين متوهم أشياء ليست موجودة فى الحقيقة .

وذهب الاخ الى محسن فى غرزته الليلية التى يعرف أنه يسهر فيها ، يشكو له حاله بعد أن هجرته امرأته .. الجو مشبع بالغيوم والكآبة .. مجموعة أفراد يدخنون المخدر بشراهة ، بعضهم يقطع الحشيش الى « لدعات صغيرة » منشورة على مسطح خشبى معد لذلك .. أغلب الافراد فى حالة فقدان الذاكرة والتوهان فى أحلام

وردية متخيلة تبعدهم عن الواقع الخشن الذى يعيشونه . تنضح رائحة عرقهم وكدهم وسط ذلك الدخان الرمادى المائل الى الزرقة .

احتار محسن مع أخيه الاكبر .. كيف لايفهم أن امرأته خائنة .. قال الاخ الاكبر المشدوه من صراحة أخيه الاصغر محسن :

ـ كيف تتقول على أفضل النساء .. كيف تقول ذلك على زوجة أخيك .

كان محسن مخدرا .. محموما من الدخـان .. مطعونا من ايلام الذات .

قال لاخيه : أفضل شىء أنها تركتك وذهبت .. والله انها امرأة مبتذلة خائنة لا تستحقك ..

كاد الاخ أن يجن .. يمد يده على أخيه الاصغر لولا مجموعة المدخنين الذين فرقوهما عن بعضهما البعض .

خرج الاخ الاكبر مطعونا فى شرفه أمام الجميع وسط الدخان والذكريات والمخدر الذى يجلى الذهن والفكر .. فكر هؤلاء المطحونين المدمنين .

هناك عند التلال القريبة .. وراء المقابر وبقايا معابد اليهود .. كانت عينان تظهران له ، تبرقان فى خوف وهلع ، خوف من المجهول .. من الغد .. من الالم الذى ينهش الانسان حتى يجعله رمادا من السهل ذره .

— ١٠ —

حيث الاشجار عالية ، والشواهد قائمة ، ومخزن الغلال الذى كان مقبرة أثرية ثم هدمته امرأة لتجعل منه مخزنا للغلال .

وحيث قبة الجامع القديم والاسوار والفتحات من عهد السلطان الغوري والشدة الخشبية وحيث صراخ النسوة أثناء تشييع أحد احبابهن ، والاولاد الذين لا يصمتون أبدا ، وحيث محل الرخام المنحوت والحجارة المسروقة من مقابر اليهود ..

هناك عند النيل وقمم الاشجار التى تميل ناحية الجنوب تحت تاثير الهواء القادم من الشمال .. « غرزة العفريت » المأوى الجديد لمحسن بعد هجرته المدبغة والدار .. يأتى له أحيانا زملاؤه فى العمل ، يأتى له الصبية يحكون ما يحدث فى المدبغة ..

انقطع بعض الشباب والصبية من الذهاب الى العمل فى مدابغ جلابو وعجور والبشبيشى الا بعد زيادة أجورهم ، وصل الى علمه أيضا فى مقره فى غرزة العفريت أن هناك اتفاقا بين الرجال الثلاثة على عدم مساعدة أى صبى أو عامل يترك عمله فى مدبغة للانتقال الى مدبغة أخرى .

وأحاديث أخرى شخصية خاصة بتوفيق جلابو وعلاقته الجديدة المريبة بعشيقة والده المتوفى ، وأن زوجته علمت بالامر وأنها تركت منزل الزوجية بعد عشرة دامت سنوات .. وحديث آخر عن منال ابنة عجور .. وعن الاستعداد العظيم ليوم الفرح الذى يجمعها مع الفتى المدلل المغرور فاضل .. زواج مصلحة وليس عن ميل لاحد الطرفين للآخر .. فقط رغبة فى تجميع المقاطعات فى مقاطعة واحدة تضم عجور وجلابو .

وعندما سأل محسن شنوانى أصدقاءه وصبيانه عن أخيه وحبيبه .. كان الرد غامضا ومبهما . وعندما أرسل أحدهم ليسأل عن أخيه فى الشقة التى يسكنها عاد يقول أن الشقة مظلمة وموصدة بالخارج بالقفل .

وأثناء احاديث الاصدقاء فى ليلة قمرية وسط مقابر النخال ، دخل البوليس الغرزة ، ليأخذ محسن الى قسم مصر القديمة القريب

.. يبيت ليلتين فى التخشيبة .. يهان .. يضرب بالفلقة على قدميه .. وهو الشاب الذى لم يخضع أبدا ، لم يهن فى أى عصر ، عصره أو عصر أبيه المعلم شنوانى المدبغجى الاصيل .

هناك عند القبة التى فوقها هلال وعدة دوائر ومستطيلات خشبية .. يعود محسن الى غرزة العفريت .. فى حالة أقرب الى اليأس والجنون الذى يدفع الى القتل ، الى الانتقام .. كان الوقت غروبا والدموع فى العينين متحجرة لا تظهر ولا تطل ، اللسان فى الفم محكوم عليه بالصمت والاعدام ..

ماذا يحدث يا محسن ؟ .. ماذا فعلوا بك ؟ .. من كان يريد ايذاءك ؟ .. هل عرفت ؟ .. هل هو واحد من عائلة جلابو .. هل فاضل هو الذى أراد ذلك الهجمة على الغرزة الآمنة غالبا .

أترك لهم البلدة .. أى مدبغة فى أى اقليم تتمنى مجهودك ومهارتك . اترك لهم المكان .. اترك لهم الشجر والشمس والتربة ومصر القديمة وحسن الانور .

اترك لهم البلدة .. أى مدبغـــة فى أى اقليم تتمنى مجهودك من عائلة أصيلة .. ولا تستطيع أن تكون عبدا لاسياد المال ومتحكمى السوق والفضلات والاوساخ والكيماويات والرائحة المعطنة .. وفاقدى الذمة والضمير .

وكرات الدخان الاسود تتصاعد الى السماء ثم تنتشر مع الهواء .. مسـطحات متتالية من الالوان الغـــامقة تتحرك خلف بيوت الفسطاط القديمة .

لم يجد الامن .. ولن يجده .. دمروا أباه ، اخرجوه من الصنعة الى الدار مشلولا ثم قتلوه .. كتبت عليه الحيرة والمسكنة .. وبقاؤه فى آخر الصفوف والهائمين على وجوههم .

وغدا .. سيكون يوم فاضل جلابو .. سيرث المقاطعة كلها .. سيكون السلطان الاكبر .. القائم على جلابو وعجور .

والشمس تختفي وراء قمائن الطوب . والمداخن العالية المتربة ، ترتفع في تحد ، يقوم محسن من جلسته في اندفاعة يائسة وسط أكوام اليائسين أمثاله الذين وجدوا في غرزة العفريت مستقرا وأمنا .

يقوم ، يمد قدميه الكبيرتين داخل نعليه ، يمد أصابعه ليأخذ قميصه المعلق فوق مسمار على الحائط المبنى من الطوب التى .. يقفل أزرار بنطلونه في عصبية ، يخرج الى الهواء الرطب .

داخل عقله من الخبل والجنون والطيش رغبة دفينة في فعل شيء غريب أحمق حتى ولو أودى به شخصيا .. انتحار اليائسين قبل انتحار المنتقم .

— ١١ —

على الطريق الترابي خلف أكواخ وعشش الصفيح والخوص المغطى بالطمي والجريد وقمائن الطوب في عزبة القرود والتخال والبلوك الشرقي .. سار محسن الى ميدان المدابغ .. يمر سريعا :. يمسح بعينيه سوق الرقيق ، الحارات المتفرعة منه ، القاضي تاج الدين ، صيدى مالك ويعقوب القبطي ، شعر الضاني والماعز منشـور على الارصفة ، رهط من العربات تقف بجوار مجرى العيون .. الاثر الباقي من صلاح الدين ، عربة جاز ، غرزة ، خيام تسكنها عائلات فقيرة ، أقواس أثرية يقابلها عند كل خطوة جنازة متوفى ، نعوش مغطاة بالابسطة والمناديل الملونة . عربات كارو تحمـل الجلود المدبوغة بألوانها . وانحناءة طريق وقلب يدق بالانفعال .. أين هو ذاهب ؟ . لا يعرف .. قدماه تسيران به الى قدره .. حتمية النهاية ـ لا يعرف شيئا ـ الشباب يكسوه . السماء أصبحت بنية اللون فجأة . يسمع أحدا يزعق على اسمه ولكنه لا يلتفت .. يشم

رائحة الجلود المدبوغة والروث والسلات العطنة والجلاتين المحروق والجلود النية والكيماويات وزبل الحمام .. وعطن وفساد الاولاد الصغار الغارقين في الجحيم حتى آذانهم .. لن يفيقوا الا بعد أن يصبحوا شبابا أقوياء .. ولكن لا مستقبل عندهم .. تنتظرهم شيخوخة محققة مع المرض .. وميتة كلاب مريضة بالدرن .

عربة تكاد تصدمه في سيره . عربة محملة بالجلود والذيول والرؤوس . رؤوس مذبوحة . عيون فارغة وشعر ناعم يكسو جبهات رؤوس الحيوانات . الضباب ينزل أمام عينيه . يتخذ ستارا كثيفا . أين هو ؟ ذاهب الى أين ؟ . الى مدبغة جلابو .. ألم يلفظوه . ألم يحرموا عليه العيش خارج مدبغتهم .. ألم يدفنوه وهو مازال يتنفس .

يسير بخطوات مترنحة .. عند ناحية حارة قبلى العيون وقف برهة . بلع برشامتين سيكونال تعطياته حق البقاء في الحياة لساعة زمن أخرى .. أدمن البرشام في الايام الاخيرة . أصبح يتناول عشر حبات في النهار قبل أن تغرب الشمس .. الحبات أرخص من الحشيش النظيف الذى كان يتعاطاه والذى أصبح لا يملك ثمنه الآن . يكفيه أنه أصبح عالة على زملاء المهنة وأصدقاء الطفولة في الحي .

القلب يدوى داخله .. ينبض بمشاعر مخيفة خطيرة . الى أين ؟ .. لن يسأل نفسه السؤال مرة أخرى . بعد خطوات سيكون أمام باب المدبغة .

أمام أحواض الكيماويات والدائرة التى تدور والمقلوبة . وأحواض السريون والاكسترا والحلية . سمع نداء آخر عليه .. سمع تهليلات رجوعه ثانية الى مكانه .. المدابغ التى تربى فيها وأحبها وعشقها ولم يجد قرص الشمس سقط تماما وراء الآثار القديمة والمصانع المهجورة والمداخل الباسقة .. ألم .. في صدره ألم . يريد أن

يصارع حيوانا خرافيا · حيوانا داخله · الضعف يجتاحه فجأة يريد أن يعود الى مكانه الجديد ·· عند غرزة الدكن · يشم المقاقير الجديدة · يريد أن يعود · ولكن قدميه تأخذانه بدون وعي الى داخل مدبغة جلابو ·· أمام عينيه مســــتطيلات الخشب معروض فوقها الجلود المدبوغة ·

نور قوى آتى من داخل المدبغة يغمى عينيه ·· قدماه تأخذانه الى المياه العطنة · الى مستنقعات المياه والشعر وفضلات الجلود ·· والتشعير والسلاتة ·· الى مكانه القديم ينظر فى حزن وشوق · على المقلوبة يعمل فتى صغير لا يزيد عمره عن السادسة عشرة · لم يره من قبل · لم يكن من صبيانه · صبيانه رفضوا أن يعملوا مكانه تعبيرا عن الحنق ·

وقد يلمح فى رغبة وخوف وحب ، آكوام السلاتة التى تتجمع بالقرب من الماكينة والجلود التى تم تلحيمها ·· الجلود التى مازالت نيئة تنتظر الدقة الرابعة ·· جلود عليها طبقات رقيقة من الردة ·

النور الصناعى الساقط من سقف المدبغة يحرك العمال حتى وقت متأخر من الليل · النور يتعب عينيه يقفلهما · المخدر الذى تناوله يعطيه قدرا من العذاب وأيضا من الراحة ·

غرفة المعلم جلابو مغلقة ·· مسطح المدبغة قذر مهمل ومهيىء للمرض ·· الجو فى الداخل بارد وكئيب ·· الفتى الذى يعمل على المقلوبة سريع وان كان ليس كفئا ، يترك الكثير من اللحمية فى الجلود ··

قدماه تسيرانه بعصــــبية ·· والبراميل تتحرك فى جلبة ·· استغنوا عن الكثير من العمال المشاغبين ، ودار دورة صغيرة خلف البراميل الضخمة التى مازالت تعمل ·· وراء البراميل حوض الكيماويات الملتهب الذى يذاب فيه الكيماويات بكميات كبيرة ··

تترك لمدة يومين ثم تأخذ كمية قليلة ، تضاف مع بستلات المياه النظيفة في البراميل .. لا يعرف لماذا راق له ذلك الحوض الممتلىء بالمواد الملتهبة .. أقسى من ماء النار .. وقف هنيهة يتأمله .

وفجأة .. وجد بدون أن يعرف أو يدرى .. فاضلا أمامه .. بجسده النحيف المشوق على غرار أولاد الذوات يكلمه بعجرفة غير مستغربة منه يسأله :

ـ لماذا جئت يا أرباب السجون .. لقد استغنينا عنك نهائيا .. تستطيع أن تذهب الى مدبغة أخرى لتعمل .. اذا كان بامكانك ذلك أما عندنا فقد قفلنا أبوابنا دونك .. سددنا أمامك الطريق وأحللنا بديلا منك فتى رائعا ليس مشاغبا يعمل الليل والنهار ولا يشكو ولا يتذمر .

ولم يكتف فاضل بل شوح بيديه فى الهواء .. يشير له الى الطريق الذى قدم منه والبوابة المفتوحة .. والطريق الواسع المترب .. ليخرج من المدبغة من ميدانه .. من ساحته .. الى أين .. ؟ لا يهم .

وتوقف عقل محسن عن العمل للحظات .. متعجبا لطريقة فاضل فى الحديث . الذى كان يلعب معه أيام الطفولة أيام ما كانوا ساكنى مصر القديمة .. فاضل ما زال يشوح له بيده . يصر على خروجه من المدبغة وهو لا يدرى ماذا يفعل .. ينظر بدون تركيز الى حوض الكيماويات الملتهب .. بخار يتصاعد .. بخار النار والجحيم ، لا يوجد جحيم معاصر أكثر من ذلك الحوض .

ولم يتحرك محسن على التو عندما أمره بالخروج من المدبغة مما اضطره للاقتراب منه وخبطه بأصابعه القوية على كتفه ليديره الى الطريق الذى قدم منه .. طريق الطين وقلة الحيلة والموت ..

شعر محسن شنوانى بالمهانة والمذلة .. وفاضل يقول له :

ـ انها ليست مدينة أبيك ـ ولكنها مدينة الاشراف ‥ الاسياد ‥ اخرج يا ابن الكلب ‥ يا مسعور يا حقير يا مدمن ‥

حقيقة أنا مدمن حقير ‥ ولكن لماذا أدمنت ‥ من رائحة الجلود ‥ من منظر الاولاد الصغار الغارقين فى الكيماويات والسلاتة طول النهار ‥ من مشقة العمل ‥ من الجلد الملتهب من التشققات والجروح التى لم تلتئم فى صدرى .

ولم يشعر فاضل وهو فى قمة غضبه من ذلك الصعلوك الملافون الذى لا يريد مبارحة المدبغة ‥ الا بيد قوية تلكمه على وجهه ‥ يد يحركها الجنون والعصبية والغل ‥ فاستدار وهو يأخذ فى سرعة خاطفة أحد الخطاطيف الخاصة برفع الجلود ، يضرب بها ذلك المجنون على وجهه وعلى عينيه ‥ وندت صرخة عنيفة ودم غزير ينساب من شريط الجرح على جسد محسن ‥ وازداد اشتعال فاضل وضربه ضربة قوية أخرى بالخطاف ليزيحه تماما من أمامه وهو يقول فى توحش : اخرج يا ندل ‥ قبل أن أستدعى لك البوليس .

وثوان ‥ مرت كأنها تسبيلة عين ‥ أمسك محسن شنوانى بكل أصابعه والدم ينزف من وجهه بغزارة بمقبض الخطاف أو الشوكة الخاصة بالجلود ‥ وضرب فاضل بأسنانها فى بطنه ‥ وصرخ فاضل من الالم مناديا على عمال الوردية ‥ ولكن محسن لم يهتم بندائه ودفعه دفعاً بأسنان الشوكة الحادة الى حوض الكيماويات الملتهبة والدخان الصاعد فوقها ‥ لينزل بمؤخرته داخله ‥ وسمعت المنطقة صرخة مدوية مفزعة ‥ صرخة رجل ‥ يقتل أشنع قتلة تحت النور الكهربائى .

ولم يهدأ محسن الشنوانى ‥ بل اقترب منه ليدفعه تماما داخل حوض الكيماويات ‥ ولكنه وهو يحرك الشوكة فى اتجاه صدره

.. ليتزل بوجهه وسط الكيماويات .. استطاع فاضل فى آخر ثانية من حياته .. وهو فى الرمق الاخير .. بقوة ساعده القوى أن يشده معه الى الحوض .

عندما اقترب العمال من ساحة الصراع وترك عامل المقلوبة عمله، وجاء شاكر من الطابق الثانى فى المدبغة حيث كان يشرف على نقل بضاعة ذاهبة فى طريقها الى التصدير . وجاء عمال المدابغ القريبة وجدوا جسدين شابين فى عمر الزهور .. وسط أحواض الكيماويات المركزة .

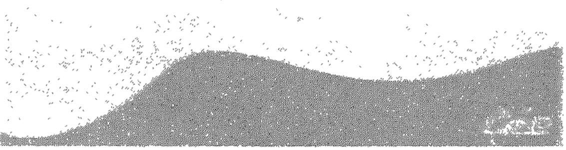
حاول الكثير من المجتمعين انقاذ الشابين .. وجاءت عربة الاسعاف سريعا بعد محاولات مستميتة تم انقاذ الجسدين بعد أن أصيب أكثر من عامل فى أصابعه وذراعه من المواد الملتهبة .

وتقل الشابان بين الحياة والموت .. جسدان متسلخان ، وجهان منتفخان ، شعور ساقطة .. أجساد مهترئة ..

ومات محسن بمجرد وصوله الى القصر العينى .. ولم يأت أحد لاستلام جثته . وأخيرا بعد أسبوع فى ثلاجة زينهم تم دفنه فى مدافن الفقراء والمعوزين .. بدون شاهد .. بدون أثر .

ومات فاضل بعد عدة محاولات عديدة من الاطباء الكبار .. ومن نسيبه الحاج عجور بعد أربعة أيام قضاها بين الحياة والموت .. متألما أشد ما يكون الالم والعذاب .. وخرج فى احتفال مهيب طويل .. تكلم عنه أهل المدابغ والاحياء القريبة كثيرا .. عن الجنازة أو الحشد الذى جاء أعظم الرجال وأغناهم .. أمامه اصطفت دوائر كثيرة من الزهور .. ودق السلام العسكرى .. وسار الرجال منكسى الرؤوس متألمين أشد ما يكون الالم لتشييعه الى حيث مقره الاخير .. ليرقد بجانب أبيه فى المقبرة ذات البوابة الضخمة والقبة على الطراز العثمانى القديم والحوائط المكسوة من الداخل بالقيشانى الملون ..

امرأة في الضباب



- ١ -

ظـــل

الطقطوقة يلمع من خلال السطح الزجاجي ..
ساعة المعصم تلقى بظلها على زجاج المكتب ..
النضارة الطبية ، علبة السجائر فوقها الولاعة
السوداء والتي أهداها لى منذ سبعة شهور في
أول السنة الجديدة .. من بعيد تراقبني المروحة
الصامتة المعطلة لعدم وجود التيار الكهربائي .

أجندة المكتب بأوراقها البيضاء وأيامها التى تتحرك في بطء ووهن ، أمامي تضايقني تغيظني .. أحس بأنها تخرج لى لسانها .

من بعيد تأتي أغنية كنا نسمعها معا خلال الامسيات الناعمة التى أعطاها الحب روحه وصفاءه .. انتظره منذ أكثر من أربعة شهور .. أرسل خطابا واحدا ثم ابتعدت خطاباته .. أتصل بى بيت أحد أصدقائه وزملائه في المأمورية البعيدة .. وقال أنه سيأتى يوم الجمعة الخامس من نوفمبر .. عرفت من زوجة زميله أن زوجها أتصل بها تليفونيا من روما .. لماذا لم يتصل كما أتصل زميله ، لا أعرف أنه بخيل .. أبدا أعرف كرمه فى الحب وفي العطاء .

مالذى حدث ، خطاب واحد خلال أربعة أشهر .. خطاب عادى خال من كل المشاعر .. أرسله بعد عذاب وسهاد وشهر كامل .. لا أعرف هل وصل بالسلامة ، هل هو سعيد في مأموريته .. هل هو مرتاح مع زملائه فى العمل .. أعرف واحدا منهم كان يشاكسه فى الذهاب الى المأمورية .. بينهما تنافس مريع منذ أن كانا

طالبين فى الجامعة ·· واخيرا فى الشركة التى تضمهما ·· أن يذهبا معا وسط مجموعة أخرى الى هذه المأمورية ·

باق أسبوعان ويومان ·· ويأتى اليوم الموعود ، أشعر بوحشة شديدة له ·· أشعر بقلق يدب فى نفسى أن يعود انسان آخــر غـــريب ·

من بعيد تتساقط النجوم على الارض ·· انتظر قدومه ·

بدأت فى ترتيب الشقة ·· قمت بدهان المطبخ والحمام بنفسى ، غلبنى العمال ·· قبل الدهان ·· قمت بلزق البلاست أويما على الحيطان العالية ·

اشتريت فازة وذهبت بها الى أحدى الورش الصغيرة ليجعل منها أباجورة يفاجأ بها على مكتبه ·· أخذت أنسج له بلوفر كحليا بيدى اشتريت ستائر جديدة ·· يوما بأكمله أدور على محلات وســط البلد ·· اخترت أخيرا قماشا مثل طرح العرائس ··

أوصيت على صنع حوضين للزهور البرتقالية اللون ·· سأضع فيهما صبارا وقشطة هندى وورودا صفراء · نزلت الى أرض الحمام ·· لانظفه من الصدأ ومن الاتربة القديمة ·· الشغالون أصبحوا لا يصنعون الا أقل القليل ·· بقى لى من الوقت أسبوعان ، بدأت روحى ترتفع ·· قبل أن يأتينى صوت زوجة زميله فى العمل ·· كانت أيامى بائسة راكدة ·· حيـــوان يعيش فى قبر ·· يأكل ويشرب ولكن محكوم عليه الا يطلع من حفرة القبر ·

الآن عندى أمل ·· أصحو فى نشاط ·· أعد الايام والساعات ·· حقيقة أصحو فى حوالى الثالثة صباحا وابقى ســـاهرة حتى السادسة صباحا ثم أعاود النوم ·

هذه الايام بدأت أنسى تقاطيع وجهه وتقاسيم جسـده وكلماته وايماءاته ولمساته ٠٠ وحتى يكون غاضـبا ومتى يكون سعيدا ٠٠ عيناه ، شاربه ، شفتاه ، رقبته ، قدماه ٠

بدأت أنسى هذه الاشياء التى كانت تعزينى ، خاصة عندما أكون وحيدة أو قبيل النوم ٠٠ أضع رأسى على وسادة الفراش الحزينة٠

ألقى بجسدى على المرتبة الجوفاء التى تشعر بالحسرة من أجلى ، كنت فى هذه اللحظة ، أتعذب حتى حد الجنون ، أتعذب من قوى فوق رأسى مجهولة ٠٠ وكثيراً ما كنت أعـذب نفسى ٠٠ استحلب ذكراه ، أيامه ، تقاطيعه ، أمتداد جسده الذى كان يرميه باسترخاء على أحد الكراسى ، مادا قدميه على نضد غير مرتفع كثيرا عن الارض، بالمناسبة اشتريت منذ يومين ثلاث نضد قصيرة متداخلة فى بعضها ٠٠ الاولى تصلح لوضع قدميه ، الثانية لوضع أباجورة القراءة ٠٠ الثالثة لوضع كأس الويسكى المزدوجة ، كان لا ينام ٠٠ لا يأتى له النوم الا بعد تناولها مع طبق من المزة التى اجيد صنعها ، وكانت أحد الاسباب التى دفعته للارتباط بى ٠

فى نهاية الكاس الثانية المزدوجة ليست عادته فى كل الايام ـ كنت أحضر له طبق اللحم المشوى المتبل جيدا المسقى بالنبيـــذ الابيض ٠٠ تحت اللحم أقراص من البطاطس والبقدونس الاخضر ٠
من يوم أن غادرنى ٠٠ سافر الى آلبعد ٠٠ الارض الجرداء بالنسبة لى ٠٠ لم أعد أطيق أن أشوى أو أتبل شيئا ٠٠ فقدت موهبتى ٠٠ فقدت ميزتى ٠٠ كرهت حتى الشراب أو صنع طبق مزة لى ٠٠ أنا ٠٠ ماذا أكون ٠٠ أنسانة شريدة محرومة من كل شىء ٠٠ الا من خيال لانسان غير موجود ٠٠

لا أكون شيئا من غير وجوده ٠٠ لا أساوى شيئا الا بوجـوده بجانبى ، ورقة بيضاء رخيصة تشترى بنصف قرش ٠

خواء ٠٠ حياتى تماما خواء ٠٠ عدم ٠٠ تماما عدم ٠٠ وهو الذى سيعيدنى الى متع الحياة ٠٠ يعيدنى انسانة لها وجود ولها جسد ، لها وجه نضر ٠٠ تريد أن تشترى ملابس ٠٠ تخرج للناس ، تمرح ٠٠ تأكل وتصنع أطباقا فاخرة ٠٠ مزات رائعة ٠٠ وتشترى أكوابا تصلح للشراب ٠٠

عندى سرير وفراش ٠٠ ولكن ما قيمتهما بالنسبة لى ٠٠ عندى عطور ولكن لمن استخدمها ، عندى ضحكة مكتومة داخلى ولكن لمن أطلقهـــــا ؟ ٠

عندى كلام كثير وحكايات تأخذ شهورا ولكن لمن أرويها ومن يسمعها ٠٠ وانا لا أريد أن أحكيها الا لواحد فقط ٠٠ ارتبطت به وأحببته حبا جما ٠٠ أعرف أنه لايحبنى نصف ما أحبه ٠٠ ولكن هذا لا يهمنى ٠٠ لست أنانية فى الحب ٠٠ أنا أحب ٠٠ هـــــذا يكفينى ٠٠ يكفينى لان أحيا حياة طيبة رغدة ٠٠

بقى أسبوعان ويومان ٠٠ على وصوله ، انتظر منه تلغرافا ينبئنى بموعد وصول الطائرة ، أخذت ورقة بيضاء وقسمتها مربعات ٠٠ وعلقتها بجانب الفراش بجوار العروس المهداة لى من أيام زواجى الاول ٠٠ سأشطب كل يوم يمر وهو بعيد حتى يوم اللقاء ٠٠

اريد أن أراه ٠٠ أريده ٠٠ أن يحتـــوينى تماما ٠٠ يخنقنى ، يهشم ضلوعى ٠٠ هل تعود الايام الحلوة مرة أخرى ؟

أخاف ٠٠ ينهشنى الخوف ٠٠ ولكن القلق والانتظار والكثير الذى ينتظرنى وعلى أن أفعله قبل قدومه يأخذنى من وهدة الخوف الى سطح الاحلام الى السماء الوردية ٠٠ هناك نجمة كبيرة ترقبنى تبتسم لى ٠٠ أبتسم لها ٠٠ أرسل لها قبلة فى الهواء ٠٠ أحب حتى النجـــوم البعيدة ٠

لم أستطع مواصلة النوم ٠٠ فى الثالثة صباحا ٠٠ أستيقظت ، لم أجد ما أفعله فى ذلك الصباح الا الرجوع الى صحف الامس ٠

أستاذ جامعى يناقش وزير الاسكان ٠٠ لم تعجبنى المقالة ، لم يعجبنى الحوار ٠٠ مقالة باردة هامدة ٠٠ حوار ناعم وليس ساخنا ولا متخصصا ٠٠ الوزير الذى أعطى السماح لاصحاب البيوت أن يقوموا بطرد من يريدون من سكانهم بحجج قوية أو واهية ٠٠ اليس هو الوزير الذى تضخمت فى عهده مشكلة الاسكان ٠٠ وأشـــياء أخرى نسمع عنها مثل تعمير السويس وماجرى فيه من أستغـــلال وتضخم فى أموال البعض ٠٠ أحيانا لا يجيد الحوار من يفهمون أو من يملكون الثقة منهم ، لايستطيعون التعبير جيدا ٠٠ يملكه أولئك المنافقون المبتذلون ٠٠ أو بمعنى أصـــح الذين يملكون ويريدون المـــــزيد ٠

الجرائد الثلاث تتحدث عن الانتخابات ٠٠ ماذا يحدث لو لم يقبل الناس على صناديق الانتخابات ٠٠ فى الطريق من العمل ٠٠ رأيت العجب ٠٠ مئات من أمتار الدعاية والالواح الخشبية المرســـومة بالالوان لوجوه هؤلاء المرشحين ٠٠ قالوا عن مرشح أنه انفق حوالى عشرين ألفا من الجنيهات ٠٠ ألم تكن المناطق الشعبية التى رشحوا أنفسهم فيها ٠٠ أحق من هذه التكاليف التى ستذهب الى البالوعات ٠٠ هذه المطبات ، هذه المجارى الطافحة فى كل مكان حتى وصلت الى وسط البلد ٠٠ هذه الارضيات ٠٠ أرضية العاصمة المتسخـــة دائما ٠٠ فى نصف الليل وفى أول النهار . هل سيقبل الناخبون ٠٠ أم يتفرجون فى سلبية على ذلك المولد حتى ينتهى ٠

مازلت أذكر كلمات خالتى « رشدية » وهى تزورنى مساء أمس

٠٠ خالتي « رشدية » هي الوحيدة من العائلة الموقرة التى مازالت تسأل عنى ٠٠

بعد زواجي من « وفيق » هجرني الجميع أفراد العائلة المحافظة لانى طلبت الطلاق من زوجي الاول ٠

أخذت خالتي السمينة التى قاربت على الستين ــ تحكى لى عن خطبة احدى بنات أقارب زوجها ، عن الاكل والشراب والراقصة المشهورة والمغنى ذى الوجه النحاسى وعن سيدات الحفل والملابس والمال الذى بعثر فى حفل الخطبة الذى تم فى أحد أيام رمضان ، لم يأكل المدعوون الصائمون المحافظون بالطبع الا أقل القليل ٠٠ وذهب الباقى الى البالوعات وصناديق الفضلات ، فى الوقت نفسه الذى كانت فيه زوجة صاحب الدعوة ووالدة الفتاة العندورة مريضة ومحتاجة الى كل مليم لاجراء عملية خطيرة فى لندن ٠

« ملت على خالتى الليلة » ٠٠ أضافت البهجة والسرور ٠٠ أبعدت عنى ساعات موحشة ٠٠ من الوحدة والليل وهو يدخـــل على فى جلستى الكئيبة أنتظر ذاك الذى لم يرسل سوى خطاب واحد ولم يقل متى سيعود ٠٠ هل بعد أسبوعين ٠٠ هذا تأكيد أم وهم ؟؟

عدت الى النوم فى السادسة صباحا واستيقظت والسابعة تدق ٠٠ وأنا أسمع حفيف الجرائد وهى تتحرك داخل الصالة ٠٠ أفتح نافذة أحدى الحجرات ٠٠ الجو رقيق ٠٠ لمسة برودة ٠٠ فى المنزل المقابل ٠٠ ثلاثة أولاد يلعبون ويصرخون ، فى شقة أخرى ٠٠ خادم صغير لايتعدى طوله نصف متر ٠٠ من أين أتوابه فى هذا الزمن ٠٠ الخادم بالطبع نحيف أسمر حليق الرأس يرتدى بيجاما قديمة كانت ملكا للسيد الصغير ــ حافى كالعادة ــ يمسح بـــلاط الشرفة فى ذلك الوقت المبكر ٠٠ الاولاد الثلاثة فى شقة أخرى يحاولون أن يتكلموا معه ٠٠ ينظر الى داخل الشقة خائفا ٠٠ يشير لهم بأصابعه

أن يتركوه الآن ، يعود الى عمله الصباحي المبكر ، لو أن بيـــدى القرار ·· لاصدرت قانونا يمنع الحدث من الخدمة فى البيوت أو فى مصانع القطاع الخاص ولكن من أكون حتى اصدر القرارات ·
أنا امرأة لاتملك الا مجرد الانتظار ، لايزورها أحد من عائلتها الا خالة مسكينة سمينة طيبة ·· تحكى لى عن أفراد العائلة واحدا واحدا ·· كأنها محطة أذاعة مرصودة لتجميع أخبار العائلة ·

أمس لم تنس أن تخبرنى عن « أحمد ابن طانط سنية » ، طلبوه للتجنيد ·· فتحية تمت خطبتها الى دكتور يعمل فى الجيش ·· غلطانين ــ كلام خالتى « رشدية » ·· الجيش النهـاردة بقى حاله حال ·· أقل الناس ياختى فى البلد ·· اســـألينى أنا عن ابنى سماعين ·· أصلهم فى الجيش ما يقدروش يسرقوا ولا يرتشـــوا ولا يتجاملوا ولا يتهادوا زى كل حتة النهاردة فى البلد ·

شوفى حنفى جوز بنتى نوال ·· الشهر اللى فات جاب عربية لمراته غير العربيـــة اللى عنــده ، وأنتى عارفة أن حنفى وسماعين كانوا زمايل فى الكلية ·· بس ده عمارة وده كهرباء ·· وده قطاع عام وده جيش ·

أخبرتنى أيضا عن أبن أخى عمر وأنه سافر الى لندن للعلاج ·· لماذا لم تخبرينى من قبل ·· انى أحب هذا الولد ·· ·· ولم ترد خالتى رشدية ·· ولكنى أعرف الاجابة ·· انهم لايريدونك ·· لا يأذنون لك بزيارتهم ·

ــ ماذا فعلت يا خالتى ؟ ··

ولا تتكلم رشدية ·· وانما تحول الموضوع ببساطة الى أسعار البطاطس واللحوم والفراخ ·· والقمـــــاش من أين أشتريته ·· ومتى يصل « وفيق » من مأموريته فى فيينا ·

حتى في الوداع ·· لا تشير الى أنني لم أزرها مطلقا بعد زواجي من « وفيق » ·· وأنها هي التي تزورني مرة كل أسبوع أو اسبوعين ·· تطمئن على ·· « أنا زى والدتك تماما ·· لو كانى أختى المرحومة نفيسة عايشة ·· ماحدش كان يقدر يدوسلك على طرف » ··

وعندما تجد أنها قد نسيت نفسها ·· تتحدث عن أى شيء معاد ثقيل لزج ·· ولاتعود الى الموضوع الاصلى ·· أبتعاد العائلة عني وقطيعتهم لى دون سبب قوى دون مناقشتهم لى في الامر يتدخلون فى حياتى دون وجه حق ·· وعندما أريد أن أواجههم ·· يهربون مني ·· ويقاطعونني ويتجاهلونني حتى بعد سفر « وفيق » ·· وحياتى الكئيبة التى أعيشها أنسانة وحيدة ·· فى صحراء جـــرداء ·· لا يسألون عن ابنتهم التى كانوا دائمى السؤال عنهــا وزيارتها والتمتع بها وبجلساتها وبيتها ·· مالذى حدث ؟ ··

هل أختيار رجل يسعدنى ·· رجل آخـر غير زوجي الاول ·· يجعلهم بهذا النفور وهذا الاشمئزاز ؟! ماذا أفعل ؟ ··

لو كان « وفيق » معى ·· لا عطانى حماسا وقدرة على تجاهلهم ·· ولكن الآن ·· أحس بوحشة شديدة اليهم ·· أريد أن أجلس معهم ساعات طويلة ، أستمع الى شكواهم وسخافتهم ·· لـــكنهم اهلى الذين عاشرتهم طويلا ·· ولا أستطيع الخلاص منهم بسهولة ، فهم يعششون داخل أوردة وشرايين قلبى بعادتهم وبمعتقداتهم ·· أنا جزء منهم ولكنهم لايحسون ·

لم أرتكب جـــرما كبيرا ، أو خطيئة بزواجى من « وفيق » وطلبى الطلاق من زوجى الاول لاجل أول أنسان أحببته فى حياتى ، قد يجوز أن الحب جاء متأخرا بعد فترة المراهقة وبعد فترة زواجي الاول ·· ولكن ماذا أفعل مع قلبى ·· ماذا أفعل وهذا قدرى ؟! ·

لو كانوا يفهمون . يقدرون ، لتسامحوا وتركوني أحب وأعيش حياتي مع « وفيق » ومعهم ·· ولكنهم قساة القلب غلاظ العقول ·· لابد أن أختار بينهم وبينه ·

وقد اخترت « وفيقا » ·· ولكنه خذلني وسافر بعد الزواج الى بون ·· لمدة أربعة شهور فى بعثة طويلة ·· ولم يعد بعد ، ولم يرسل سوى خطاب واحد ··

واعرف من زميله في العمل موعد وصوله البعثة ·· ولكنه لا ينبئني ·· هل يمكن أن يكون قد نسينى فى هذا الوقت القصير ·

— ٣ —

تزوجت مدحت بعد انتهاء دراستي الجامعية ، وعمل كاخصائية اجتماعية فى احدى المؤسسات العمالية التى تشرف على شركات صناعة الجلود ··

تعرفت بمدحت عن طريق احدى سيدات الاسرة المحافظة الوقور ·· سـيدة أخرى صـديقة لقريبتي دعتني مع قريبتى عندها لكى تجعلنى أرى مدحت ، كنا تعرف بالطبع ·· لم أتحمس ولكننى بالغريزة الانثوية اهتممت بشكلى وبردائى ·

وفي شقة صديقةقريبتى بالزمالك ·· تم اللقاء ·· ذهبت مع قريبتى ، لاجده هناك ، رجل متزن فى حوالى الاربعين ، على قدر من الوسامة وايضا الاناقة . يختار الكلمات بحساب شديد ، تصورت أن هذه طبيعة القعدة المرسومة ولكنها كانت طبيعتـه دائما ·· لا يخرج من فمه حرف واحد الا بعد أن يفحصه فحصا مضنيا ، يدخل العقل ثم يخرج من الشفتين ·

حقيقة أعجبت بمدحت في هذا اللقاء ، كان يدير القعدة زوج صديقة قريبتي ، رجل في الستين وقور مرح ‥ قدمت صديقة قريبتي أصنافا عديدة من الحلوى ، وأيضا قدمت الرقة الشديدة والحساسية الفائقة وهي تقدمني لمدحت وبالتالي وهي تقدمه لي ‥ دكتور في الجامعة ‥ قضى ثماني سنوات في أوروبا ‥ لم يتزوج الا العلم والتحصيل ‥ حتى آن الاوان أن يكمل دينه ويفعل كما يفعل كل الرجال والنساء ، يدخلون الى الشقق الجديدة ، يرتبونها . ويعيشون معا ، يتامون ، يستقرون ‥ يحلمون ‥ ينجبون ‥ ثم يصمتون ‥ حتى يمرض أحدهم فيعتني به الآخر ‥ ثم يأتي الشفاء ويعود الصمت .

لم يكن عندي سبب واحد لرفض مدحت ‥ رجل ممتاز ‥ رجل مختار من بين جميع الرجال الذين يمكن أن أقابلهم في حياتي وسط الاسرة الرصينة أو أثناء عملي في فحص حالات العمال المزرية

كان أفضل الرجال قاطبة ‥ بعد أسبوعين ‥ زارنا مدحت في منزلي ، قابلته أمي وخالي وأخي الاكبر المتزوج والذي يسكن قريبا من منزلنا ، يأتي لنا بأولاده الثلاثة الصغار صباح كل يوم لتعتني بهم أمي السيدة العجوز المريضة بالسكر وضغط الدم .

في نهاية اللقاء قدم مدحت الكارت الخـــاص به لاخي الاكبر للسؤال عنه ولفحص حالته ، بعد ستة شهور ‥ تزوجنـــا في أحدى العمارات الجديدة في المنيل ‥

حياتنا معا كانت عادية للغاية ‥ أفطار ‥ ثم ذهاب للعمل ‥ ثم غداء في موعد محدد في الثالثة بالتمام ‥ تســـاعدني في اعداد الغداء شغالة تأتي كل يوم ‥ تغســـل الاطباق ثم تترك الشقـــة .

بعد الغـــداء ·· نوم الظهيرة ·· ثم خــروج زوجي لبعض مسئولياته التي لا أعرف عنها كثيرا ·· ثم العشاء ·· والنوم ··

تتم ممارسة الجنس يوم الخميس من كل أسبوع ·· يصحو زوجي يوم الجمعة متأخرا بعض الوقت ، في الحــادية عشرة · نذهب يوم الجمعة لزيارة أمه التي تعيش وحيدة في منزل كبير في شبرا ، نعود بعد الغداء ···

أحيانا نذهب في أيام الجمع الى احدى دور السينما ·· حفلة الماتينيه · نعود لنتفرج على التلفــزيون ·· أترك زوجي بعض لحظات لاغسل بعض الاطباق ، أو لاعد غذاء اليوم التالى ··أكلم بعض صديقاتي في التليفون ·

لم أعرف عنه الكثير ·· كان شيئا مقلقا بالنسبة لى ·· وهو رجل مهم ·· يهتم بألفاظه ، يهتم بملابسه ، بمواعيده ، مسئول لدرجة الموت ، محدد لدرجة التقزز ·

لم يكن له رأى في ·· أنسانة معقولة متزنة من الخارج ·· تصلح لمرافقته في بعض الزيارات ، في الخروج الى الشـــارع العريض ، تصلح أن تكون مرافقـــة له أمام الجيران والاقارب والاصـــدقاء ·

لا يسألنى أبدا عن عملى ·· لايحدثنى عما تكتبه الجرائد من تفاهات يومية ·· لايناقشنى في بعض الفضـــائح التي تنشرها جرائدنا الثلاث أحيانا ليكسر حدة الصمت والانطواء والتعود على الأشــــياء ·

عندما أكلمه وأثيره ليتحدث في بعض هذه المواضيع ·· يدير الحديث الى شيء آخر محدد لايحتـــاج الا لبعض الكلمات ، ثم

ينظر فى كتاب - أو ينظر الى التليفزيون حتى لقد تمنيت يوما أن أهشم ذلك السطح المستدير الذى تظهر عليه خزعبلات المثقفين والفنانين .. أنهم فضلات البشر .

استمرت حياتنا ثلاث سنوات ، كنت أنفجر داخل نفسى ، توفيت أمى أثناء تلك السنوات .. وكنت أحكى لها عن مدحت .. كانت تتعجب من تلك المخلوقة التى تحب الحياة مع العذاب مع المنغصات ..

قالت لى أحمدى ربنا أنه لايهينك بكلمة ، لايرفع يده عليك ، لايصرخ فى وجهك .. لايتآمر ، لايشخط .

قلت بل أنه لايتكلم يا أمى .. قالت لى : هذا أفضل لكما .. الزوج ما هو الا استقرار فقط .. احتياج .. تحتاجين الى رجل .. فتجدينه ، يحتاج أمرأة .. فيجدك .

أتعرفين ما ينقصك هو الاولاد .. لو تنجبين طفـــلا أو طفلة .. لاحببت ذلك الاستقرار ولنعمت به .. واصبحت هذه الحياة التى تتصورينها مملة كئيبة .. حياة رغيدة أشبه بالجنة وليس الجحيم ..

— ٤ —

قلت « وفيق » أول مرة وانا أزور تلال زينهم .. أكشاك من الخشب . يعيش فيها آدميون ، رجـــــل متزوج من زوجتين ويعيش معهما فى حجرة لاتزيد عن ستة أمتار مسطحة وله من المرأتين ثمانية أولاد وبنات .. دورات المياه فى الهواء الطلق ..

تلال بأكملها تعيش داخل صحن احد الجوامع القديمة .. أسر تتراوح أفرادها من ستة الى عشرة أفراد يعيشون فى مسطحات

محدودة ، ولايفصل بينهم سوى ستائر من القماش .. أشياء مخجلة ، برك من الماء والقاذورات .. أطفال عراة يلعبون في مياه المجاري .

نسوة عجائز يأكلن رغيفين بقطعة مخلل وقرص طعمية .. الفقر والعوز والاخاديد التي تملأ الوجوه والملابس القذرة والامراض في العيون والوجوه وفي الامعاء المتضخمة .

بشر يعيشون وسط العاصمة .. ونكذب دوما .. ونضحك دوما وعندنا كل هذه الكميات من الفقر .. أحكي لزوجي .. ولكن بعض لحظات .. لايسمعني .. يتركني بأدب شديد ليدير أسطوانة أجنبية يحبها ..

يعود ليبتسم في وجهي ، يقبلني على جبهتي .. طالبا العشاء الساخن وعلب البيرة المثلجة ، أشعر بالقرف وهو يأكل بنهم ويتمتع .. أتصور تلك العجوز أمام طبق به قرص طعمية وقطعة مخلل.. وتأكل رغيفين وتنظر لي بأبتسام وتعاملني بأحترام وخوف وأنا أسألها عن زوجها المريض العامل المتغيب عن العمل منذ شهر .. تطلب فصله ..

ويظهر من داخل الكشك الخشبي فجأة .. ست عيون لاولاد ثلاثة صغار أكبرهم في العاشرة واصغرهم في الثالثة ، حفاة .. ملابسهم قديمة متسخة ، يبحلقون في أصابعي .. يتجهمون .. ثم يضحكون .. يلتفون حول المرأة العجوز ..

وتظهر أمرأة نحيفة في الخامسة والثلاثين .. منتفخة البطن، تتحرك بصعوبة ، ترتدي صندلا قديما تلف رأسها بمنديل قديم يظهر منه مسطح شعرها الاحمر المغسول بالحنة .. وجهها شاحب أصفر .. لاتزن خمسين كيلو الا بذلك الثقل المنتفخ الذي يظهر

من نصف جسمها ·· تقول لى وهى تكاد تبكى : لقد خرج وسيعود بعد ساعة ، ترجونى الا أرفده ·· من أكون أنا حتى ارفده ·

أنهم محتاجون لكل مليم ·· أنه مريض ·· لايستطيع السير أو التحرك ·· ولكنه خرج اليوم فقط وفى هذه الساعة ·· ليرى الطبيب ··

وأجلس على كرسى يكاد يقع بى ·· أضع حقيبتى على نضد ممتلىء بكتب وأوراق ملفوفة ·· وتقع عيناى على أغلفة الكتب القديمة المنقوشة الاوراق المصنفرة الجلدة من الاستخدام ··كتب فى الرياضيات والميكانيكا وفى التفاضل والتكامل ··

وأحاول أن أتكلم مع السيدة النحيفة المنتفخة البطن عن زوجها ·· لقد غاب عن العمل منذ أكثر من شهر بدون وجه حق ·· ومن حق الشركة ان تفصله ·· لقد تجاوز كل أيام الاجازات والغياب بدون أذن ·

وتصحح لى السيدة المريضة الممتلئة البطن وضعها ·· انها ليست زوجة مصطفى عويس ·· أنما هى أخته المطلقة ·· طلقها زوجها منذ عدة شهور لتعود باطفالها الثلاثة والطفل الذى لم يظهر بعد الى منزل أخيها ·· وأرقب بدهشة الحجرتين الخاليتين من الاثاث، مجرد أكوام من البطاطين ولحاف قديم ·· فقط هناك بجانب شباك الحجرة الخلفية توجد كنبة فوقها بعض الكتب ·

وتقول السيدة الشاحبة : خاصة بسلامته سى وفيق ربنا ينجحه هذه السنة ·· ويظهر فى اللحظة نفسها ·· عند عتبة الباب ·· وراءه قرص الشمس ·· شاب طويل قوى البنية أسمر اللون ·· يرتدى بلوفر سميكا ومعه أوراق ملفوفة وبعض الكتب ، يسلم الشاب على ·· يطلب صنع كوبين من الشاى الغامق · وعندما

اعتذر عن شراب الشاى يخرج الشاب من جيب بنطلونه علبة سجائر صغيرة بها سيجارتان ..

أعتذر ثانية واخرج علبة سجائرى الامريكية من حقيبتى الجلدية .. واقدم له سيجارة من علبتى يبتسم الشاب الذى كان قد أخذنى لاجلس فى الحجرة الثانية بجانب الشباك على الكنبة .. بعد ابعاد رصة اللوحات والكتب .. بينى وبينه مخدتان صغيرتان ..

الاحظ أن له عينيه خضراوين .. أول مرة أرى انسانا أسمر له عينان خضروان .. بعد ذلك رأيت الكثير من الوجوه السمر ذات العيون الخضر .

يعرفنى بنفسه : أنه أبن مصطفى عويس .. العامل الذى أنا بصدد بحث حالته وتوقع فصله من الشركة بين يوم وآخر بناء على تقريرى الذى أقدمه للشركة .

يحكى لى « وفيق » ظروف أبيه بصراحة غير متوقعة .. ان أباه يعمل فى مدبغة أهلية لمدة شهرين حتى ينتهى من دراسته الجامعية وحتى يستطيع الحصول على البكالوريوس .. هذه الاعباء زادت على الاب حتى أصبح لاقدرة له على احتمالها بعد وصول ناعسة أخته ومعها الاولاد الثلاثة لتقيم معهم .. أمه تعمل فى البيوت .. تخرج من الفجر ولاتعود الا بعد أذان المغرب .. ومع ذلك فالحياة قاسية مريرة .

يرجونى الشاب أن أتغاضى عن الحقيقة عند كتابة التقرير الخاص بوالده .. يرجونى .. هذه السنة فقط .. انها آخر سنة له فى الدراسة .. كل الصيف يعمل فى ورشة سيارات ليساعد العائلة فى نفقاتها ..

اذن لم يكن الوالد مريضا .. ولكنه يدعى المرض .. ليقبض مرتبه من القطاع العام ويعمل فى القطاع الخاص ..

اذن ماذا سنفعل .. القطاع الخاص يدفع ثلاثة امثال القطاع العام .. ولكن القطاع الخاص لايهتم بالعامل .. متى مرض أو متى وقع فى حوض الكيماويات ؟ .

قال لى وفيق .. اذا انتظرت بعض الوقت .. فسترين أبى . مجرد هيكل عظمى .. أمتصه القطاع الخاص وأحواض القرض أيام كان شابا صغيرا ، واحواض الكيماويات عندما شاخ وكبر فى السن .. يدفعون كثيرا ويأخذون الصحة والحيوية .. فكرى فقط فى هذه العائلة الكبيرة .. فى الجدة وفى العمة وأولادها .. عندما أنتهى من دراستى .. سأعول هذه العائلة وسيعود أبى الى مصانع القطاع العام .. يعمل قليلا ويقبض قليلا .. ولن أرضى أن يعود الى القطاع الخاص يعمل باليوم فى تلك الاحواض اللعينة، التى تلتهم الجلد والعظم وتورث مرض الصدر والربو .

والحقيقة انى لم يكن عندى ما يشغلنى فى ذلك اليـــوم .. فزوجى يذهب كل يوم ثلاثاء الى المنصورة ليلقى محاضرة هناك فى جامعتها ، ولايعود قبل السابعة مساء ..

بعد لحظات مضت فى الحوار مع وفيق الذى أذهلنى بشخصيته وحواره الذكى الطموح .. دخل علينا رجل أشبه بالمومياء .. يرتدى جلبابا وصندلا قديما .. وتفوح من جسده رائحة عطنة حقيرة .. سلم على بتخاذل ، كاد أن يقبل يدى وأنا أسلم عليه .

قال لى : ياست هانم .. أرجوك لاتقطعى عيشى .. كلها عدة أيام ويتخرج سى وفيق وأعود الى عملى فى مصنعكم .. ولكن أعطينى مهلة لمدة خمسة عشر يوما أخرى .. أدبر فيها نفسى .

ولم يكمل كلامه .. أخذه السعال الحاد .. الرجل مريض لاشك فى ذلك .. ارتمى الرجل على كومة البطاطين .. وخيل لى فى لحظة أن الرجل سينتهى بين لحظة وأخرى من كثرة سعاله وتنفسه الغريب الحاد ..

قام الرجل بعد أن أخذ أنفاسه .. ليستند على حاجز الشباك .. ليخرج الى الضوء مرة ثانية .. قال لى وفيق .. لقد أرسلت له ليأتى من المدبغة .. وترينه على حاله .. ولكن لابد له أن يعود ليكمل عمله حتى أذان العشاء ..

قلت له وأنا اشفق عليه : الرجل سيموت وانتم لاتحسون به .

لم يهتم وفيق بكلامى .. كأنى طفلة أشدو فى جحيم الفقر .. أو فى زفة مولد صارخ النبح والاصوات . خرج وفيق معى من تلال زينهم .. أو من مساكنها أو أطلالها وفقرها المدقع ليوصلنى حيث أركن عربتى هناك عند العيون ..

أبتسم وهو يسلم على .. يرجونى أن لا أكتب تقريرا ضد والده .. أسبوعان ويعود الوالد .. ليخصموا مدة الغياب .. أو يخصموا ثلاثين فى المائة حسب القانون الاخير .. ولكن أرجوك لاتكتبى أنه صحيح معافى ويعمل فى مدبغة أهلية ..

أريد بعد رحيل أبى معاشا لامى السيدة المسكينة ولاخوتى الباقين الذين لم ينفعوا فى صنعة أو فى التعليم .

ليتك تأخرت لتشاهدى والدتى بعد الغروب وهى عائدة بعد يوم غسيل شاق فى بيوت الزبائن أو ترين أخوتى يعودون بعد صياعة طيلة اليوم ..

تحركت بعربتى وأنا مشدوهة . متألمة أشد الالم من واقع هذه

العائلة ، وأيضا من هذا الشاب المكافح الذى سيصبح مهندسا فى نهاية العام الدراسى ..

الشاب الطويل القامة العريض المنكبين ذو العينين الخضراوين وابتسامته الساحرة وكفه العريضة وهو يأخذ يدى بين أصابعه لمدة ثوان قبل أن افلتها من كفه . وأفلت أيضا من هذه المنطقة الموبوءة . حاولت أن أحكى ما بنفسى لزوجى ونحن على مائدة العشاء .. ولكنه لم يكن متنبها لكلامى ، كان يداعب قطته السوداء .. يعطيها بعض قطع من لحم الفراخ ..

كنت أتكلم فى فراغ .. أخيرا قال زوجى : هل تحبين أن تغيرى عملك .. أكلم رئيس المؤسسة لينقلك الى عمل كتابى .. تبعدين عن مشاق الطريق ورؤية هذه الاسمال .

الاسمال .. هل البشر عندك أسمال .. قلتها بعصبية شديدة .. هل خلق بعضنا أسمالا .

قال زوجى : انك بسيطة طيبة .. لاتعرفين هؤلاء القوم معرفة جيدة ، الفقر حولهم الى حيوانات تريد الاخذ ولاتعطى أبدا .. تعطى المرض والهروب من العمل والكراهية الشديدة لكل من كانقادرا .

صممت أذنى عن سماع كلام زوجى .. كرهته تماما فى هذه الليلة .. تمنيت أن أقتله فى تلك اللحظة وكرهت هذا الالحاح .. فقط أشمأزت نفسى وتمنيت أن يبعد عنى فى هذه اللحظة وفى اللحظات القادمة .

بعد العشاء .. جلسنا كالاصنام نتفرج على برنامج التليفزيون .. يريد كل ساعة فنجـــان قهوة أو علبة التمباك أو علبة بيرة مثلجـــة .

منذ تلك الليلة .. وأنا أشعر ببرود نحو زوجى ، وأن هناك هوة سحيقة بين فكرينا تزيد يوما بعد يوم . حاول زوجى أن يمارس الحب .. وتعجبت لان الليلة ليست ليلة الجمعة ..ولكن يظهر أن نفورى وكرهى له وتشاؤمى لمنظره .. حرك شهيتـــه الرجـــولية .

وعجيب هذا الانسان .. مع الكراهية والاشمئزاز يتـــولد الحب .. وتتولد الشهوة ..

ولكن فقط للحظات .. بعدها يعود الى طريقه القديم الصامت المموج المتحرك فى بطء ووهن .. يسير بخوف وترقب وفى حدود

ـ ٥ ـ

بعد أسبوعين .. وكان أيضا يوم ثلاثاء ، وأنا أجلس على مكتبى

.. أكتب بعض التقارير الخاصة ببعض العمال والموظفين لتقديمها الى رئيسى .. وجدت وفيق أمامى .. بوجهه المســـتدير الاسمر القوى الملامح .. بصوته الرجولى القاطع .. بجسده الضخم العالى .. يرتدى البلوفر نفسه .. ينظر لى بعينين مملوءتين حزنا وألما .. قلت فى نفسى أنه يمثل الحزن .. هذه الشخصية لايظهـــر عليها الانفعال بشدة ..

دعوته للجلوس أمامى .. أمرت له بفنجان شاى ودعوته على سيجـــارة ..

قال : هل كتبت التقرير الخاص بأبى ..

قلت وأنا أعبث فى بعض الاوراق التى أمامى ـ الحقيقة كنت قد كتبته ولكنى لم أقدمه بعد .

قال بقوة طاغية يكسوها الحزن : اذن لاتقدميه ·· فوالدى الله يرحمه مات منذ أربعة أيام ·

الحقيقة شعرت بهوة سحيقة تبلعنى ·· أنا التى كنت قد كتبت تقريرا ضده ·· لو قدم وقتها كنت حرمت العائلة من المعاش ·

قال وخيق : لقد مات أثناء العمل فى المدبغة الاهلية ·· انزلقت قدمه وهو يتحرك على الخطوط التى بين الاحواض والتى تفصل بين أحواض الكيماويات واحواض القرض ، صباح ذلك اليوم رجوته ألا يذهب الى العمل ·· أن يرتاح ولو يوما واحدا فى البيت ·· قال لى ومازلت أذكر كلماته ·· سارتاح قريبا جدا بعد أن تنتهى من امتحانك ·

أنزلقت قدمه داخل حوض الكيماوى ·· أخرجوه جثة هامدة منتفخة الوجه متآكلة الاطراف ·· وكان لابد من تصفية الحوض من الكيماوى قبل أخراجه من الحوض ·· خرج مع السلاته والجلود المدبوغة ··

قلت له ·· بعد لحظة صمت اليم ·· كنت أقارن فيها هؤلاء البشر وبعض البشر الذين يتفرجون على التليفزيون ويمدون أرجلهم فى راحة ودعة ، يشربون علب البيرة ، ويتسلون بالمسليات هؤلاء يعملون ويموتون أشد ميتة ·· وبين حياتهم فى العمل والموت عذاب جسمانى رهيب ·· وهؤلاء الذين يسترخون ويحصلون على أفضل المتع ، وعند الموت يخرجون فى مشهد مهيب

قلت له وأنا أشفق عليه ، على الوجه الضخم ، العينين الخضراوين من الحزن :

- وهل أنتهيت من أمتحانك ؟ ·

ـ لم يبق لى سوى أربعة أيام وبعدها تأتى أجازة الصيف ، سأعمل فى أحـــدى الورش الميكانيكية التى يكسب فيها أكثر من المهندس . ولكننى أيضا سأقدم عندكم وفى بعض الشركات لاعمل مهندسا يقبض ملاليم لاجل خاطر المرحوم أبى الذى أضنى نفســه فى العمل ووهب نفسه للعذاب والفضلات والكيماوى من اجل أن يرانى باشمهندس قد الدنيا .. ليس كلاما ولكن حقيقة ، معى الآن شهادة تصور وتوضح فى حجرة المسافرين .. عندما يوجد عندنا حجرة مسافرين .

تركنا المؤسسة معا .. دعوته أن يراكب معى .. ولكن العربة توقفت .. تعطلت فى ميدان سليمان وكان لابد من « زقــة » .. ونزل وفيق يساعد العربة على التحرك .

قبل أن أوصله عند العيون .. قال لى .. لماذا لاتمرين على الورشة التى أعمل فيها فى أجازة الصيف لاصلح لك العربة .. العــربة تحتاج الى صيانة كاملة . طقم بوجيهات .. والموتور يأكل زيت .. الناس الآن لم يعد لها ضمير .. الاسبوع الماضى دفعت ٤٠ جنيها لميكانيكى السيارات قبل أن اتركه .. أعطانى العنوان فى ورقة صـــغيرة .

بعد أسبوع .. وكانت العربة أشبه بالجثة الهامدة لاتدور الا بصعوبة .. ذهبت الى الورشة الخاصة به .. فى شارع مجلس الامة

وكان اليوم أيضا يوم الثلاثاء .. يوم تأخر زوجى فى محاضراته بالمنصورة .. وعندما سألت عليه دلنى صبى على ورشة تأخذ محلين

وهناك وجدت وفيقا يرقد تحت العربات .. قام متسخا بالشحم الزيت . سلم على بقوة .. وضحكنا بقوة وانا أرى أصابعى أصبحت مثل أصابعه ملوثة بالشحم ..

بعد أن أحضر لى كرسيا .. وطلب لى شـــايا .. فحص موتور العربة .. قال لى .. أتركيها لنا يومين .. وليكن يوم الخميس أو الجمعة القادم .

كنت أتفرج عليه وهو يفحص العربة .. وهو يهتم بالموتور .. أعجبت بهذا الانسان المــكافح الذى سيحصل على بــكالوريوس الهندسة بعد أيام ، ولايمانع أن يعمل ميكانيكيا ، يرقد تحت العربات يرتدى ملابس ملوثة أقرب الى السواد .

وانا أتركه بعد أصلاحه الشكمان .. قال لى .. هل أستطيع أن راك اليوم .. سأنتهى من عملى فى الرابعة بعد الظهر .

باغتنى بسؤاله .. اختلجت مشاعرى .. دق قلبى دقاته العنيفة التى كنت قد نسيتها منذ زمن طويل . لم أدر بماذا أجيب .. سمعت صوته يقول : نتقابل فى الشاى الهندى .. سأغير ملابسى وسألحقك هناك بعد نصف ساعة .

تركت مجلس الامة .. الشوارع مزدحمة ، المياه طافحة فى كل مكان ، بشر ملتصقون بالاتوبيسات المزدحمة درت بالعربة لمدة نصف ساعة .. ثم وجدت نفسى تلقائيا ودون ارادة فى صالة الشـاى الهندى أجلس فى انتظاره ..

— ٦ —

ساءت حالتى النفسية فى الايام التالية لمقابلة وفيق فى صـالة الشاى .. وساءت أكثر بعد لقاءاتنا كل يوم ثلاثاء من الرابعة الى السادسة .. كنت أختلس اللقاءات .. من وراء زوجى .. كنت اشعر بأننى زوجة خائنة .. زوجة جبانة .. أكره الخوف واشمئز من نفسى .. لم أكذب أبدا طيلة عمـــرى .. تعلمت من أمى أن الكذب خيبة .. كنت صريحة مع الآخرين لدرجة العبط .

كنت أصحو في الليل بين الرابعة صباحا والسادسة صباحا ٠٠ ادور كالمجنونة في المنزل ، زوجي يغط في نومه ٠٠ بارد الحس والموهبة ٠ لا أجد شيئا أفعله في تلك السويعات الصباحيــة ٠٠ اغسل صحون العشاء ٠٠ اقرأ قليلا وانا لا احب القراءة كثيرا ٠

ادخل حجرة الصالون وأقفلها على نفسي وأسمع بعض الاسطوانات الاجنبية ٠٠ كنت أضطرب وأنا أتذكر كلمات وفيق ٠٠ أتذكر وجهه عينيه الخضراوين ، تقاسيمه القوية الواضحة ٠٠ شبابه ٠٠ لم يكن يصغرني الا بأربع سنوات ، ومع ذلك كنت اتخيله أخي الاصغر ٠٠ لوقدر لى أخ أصغر مني ٠

كنت أتعذب وأنا ارى زوجي ذاهبا في سبات عميق ٠٠ أتذكر وجوه الجالسين في صالة الشاى ٠٠ هل كان يجلس هناك أحـد يعرفني أو يعرف زوجي ٠٠ قد يكون طالبا أو طالبــة من الذين يترددون عليه في البيت ٠

هل رآني أحد في داخل صالة الشاى الهنـدى ٠٠ كنت اكره نفسي وأنا داخل صالة الشاى بمفردى وأخرج منها أيضا بمفردى ٠

كيف يحترمني وفيق ٠٠ وأنا أقابله خارج المكتب ٠٠ موضوع والده انتهى منذ زمن ٠٠ كذبت في تقريرى بشأن غياب العجوز وسرت وراء أوراق المعاش حتى أنتهى ٠

كنت أضطرب داخل نفسي ٠٠ وليس لى صديقة أو شقيقةأستطيع أن اصارحها بمشاعرى ، وفيق وضغطه على أعصابي ٠٠ كل مرة كنت أقول لنفسي أنني لن أراه ثانية ٠٠ وهذه هي المرة الاخيرة ٠٠ ومع ذلك أعود أتصل به في الورشة لاذكره بالموعد ٠٠ انني أحبه ٠٠ أحبه كما لم أحب أحدا من قبل ٠٠ أخي ٠٠ خالى ٠٠ أمي ٠٠ والدى ٠٠ الذى سمعت عنه جيدا ، ولم أعرفه جيدا فقد مات المسكين في مستشفى بهمان وأنا لم أتعد الخامسة من عمرى ٠

كدت أجن .. وأنا أعيش داخل نفسى .. أحب .. أخاف .. اكره نفسى .. أصبحت مزدوجة الشخصية .

وظهر تأثير ذلك على حياتى فى البيت وفى العمل .. أصبحت سريعة الغضب والهيجان مع الشغالة ، مع الموظفين فى المكتب ، ومع زوجى الذى لم يشعر للاسف بما يعتمل داخل صـــدرى . أصبحت أكره نفسى ، أحتقر نفسى الهشة ... تصورت أن الجميع يسيرونني حسب رغباتهم يدفعوننى فى الطريق الذى يريدونه .. احسست بالغلاف الذى كان موجوداً داخل نفسى ولم يظهر الا الآن

موظفو المكتب يستغلوننى ، أنا التى أقوم بكل العمل ، وهم الذين يزوغون .. كنت فى الماضى أحب العمل وأعتبره ثقة كبيرة أن يسند لى أغلب الاعمال .. كنت سعيدة بكل العمـــل الذى يأتى لى .. ويهرب منه الزملاء .. كنت أقول أنهم محتاجون لهذه السويعات فى أعمال أخرى أو لان عندهم أولادا .

الآن أصبحت أحاسب الآخرين محاسبة عنيفة ، أبالغ فى انفعالاتى ووفيق الذى أصبحت لا استغنى عن رؤيته كل ثلاثاء .. أشعر به يضغط على صدرى وقلبى .. أنه هو الذى يحركنى .. لا أستطيع أبدا ان أرفض له طلبا .. وان كان يطلب أشياءه ، أو رغباته بهدوء وبطء ...

طلب منى مرة أن نذهب الى شقة صديق .. ولم أرفض .. شعرت بالمهانة والاحتقار من سؤاله ولكننى ذهبت معه .. ولم يحدث شىء .. سوى بعض القبلات والمداعبات ..

تمنيت أكثر .. وكرهته .. لانه هو الذى يعطى وانا الذى أقبل هو الذى يقول وانا الذى أستسلم .. ولكننى لم أنم لمدة أيام بعد تلك المقابلة ، أتذكر حيطان الشقة .. أتذكر مأساتى .. أتذكر

وجهه .. وحبى له .. أتذكر لمساته ، أتذكر يده .. ضغط أصابعه .. وشفتيه وهما تقتربان منى .

كنت بين نارين .. نار أنى أريده تماما .. ونار أنى لا اريده اتمنى أن اصحو يوما وأنا خارج هذه الحلبة .. خارج هذا الصراع .. لم أضع زوجى فى حساب هذه اللعبة .

وضعت فقط نفسى الطيبة .. أريد .. ولا أريد .. أشعر أنى تحت تأثير مخدر .. ثم اصحو لنفسى وأتعجب كيف رضيت بهذا المخدر . وأين المفر .. وكيف يكون المستقبل ؟ ..

ووفيق .. هل يرضى أن يرتبط بى .. فى أحد اللقاءات وكنا فى صالة الشاى .. فى أثناء الحديث عرجت على موضوع المرأة المتزوجة التى تحب آخر غير زوجها ، وهل يقبل حبيبها الجديد أن تكون زوجة له ، لدهشتى كانت أجابته أن هذه المرأة يسهل سقوطها مع أول رجل تقابله بعد زواجها .. لن تكون مسئولة بعد ذلك .. وسيكون الرجل الذى يرتبط بها أشبه بالمغفل .. فهى قد تعيد الكرة مرة أخرى ، وأن سقوط المرأة مسألة مبدأ . أغلب النساء المتزوجات .. بل جميعهن .. يتمنين فى لحظة ما أن يشاركهن الفراش رجل آخر غير زوجهن .. ولكنهن يتمنعن .. يمسكن أنفسهن .. يحرصن على أنفسهن .. قد يحلمن .. قد يتخيلن .. قد يعشن قصة حب من ناحيتهن فقط .. ولكنهن أبدا لا يسقطن .

حاولت مناقشته .. أن المرأة ليست جسدا فقط بل فكر أيضا واحساس قلب متدفق بالحيوية والشعور ... والجسد شىء سخيف .. آخر ما افكر فيه .. وأنا لا اقبل أبدا أن أحب آخر غير زوجى فكريا ثم أرتبط بزوجى جسديا . ولم يوافق وفيق على حديثى .. بقوله انه من أسرة فقيرة شعبية ترى الامور بمنظار متخلف عفن .. ولكنه لا يستطيع أن يغير من نفسه الآن ..

بعد عودتي من لقائه .. أتذكر كلماته حرفا حـــرفا .. أتذكر كلماته المليئة بالسم والالم .. ماذا يريد مني هذا الانسان .

الا يعرف أني كنت أتكلم عن نفسي وعن علاقتي به .. ألا يعرف أني متهالكة في حبه . ماذا يريد مني ؟ . قلت له مرة وانا في أشد حالة من الهيجان .. وكان قد تعود على هيجاني وعصبيتي في بداية اللقاء وفي نهاية اللقاء عندما كان يذكرني بموعد عودتي .

قلت له : لن نتقابل مرة أخرى .. أنك تحطمني .. ما الـذي بيني وبينك .. أريد ان تصف لي العلاقة التي بيننا .

وبمنتهى البرود والحكمة اللتين كانا يجيدهما في الحديث معي قال:

ـ صداقة .. مجرد صداقة بين شخصين يرتاحان لبعضهما . يحكيان لبعض همومهما .

ـ ولكنني أمرأة متزوجة .. وأنت تحتقر المرأة المتزوجة التي تخرج مع آخر غير زوجها (ولم أقل الذي تحب آخر غير وزجها) .

قال بنفس البرود والتعالي :

ـ الوضع يختلف .. أنت أمرأة غير عادية ..

ولم افهم ماذا يريد أن يقول .. لان الجرسون كان يتابعنا .. أحس بالخوف والكراهية أزاءه .. أصبح يقـابلنا بترحاب غير عادي كل يوم ثلاثاء وكأنه يعرفنا منذ مدة .. كأنه قريب لنـــا .. لزج مكار .

اشعر بالمهانة والعيـــون تراقبني .. ترهقني .. كل البشر يرهقونني . يضغطون على روحي .. يشدون وثاقي .. الكل يلتهم رغباتي .. يضحكون علي .. وأنا الانسانة البسيطة الهشـــة .. ماذا يريد الجميع مني ؟.. زوجي لا يهمه سوى فراشه الدافيء واكله الساخن وزجاجات البيرة المثلجـــة .. وشرائح البطاطس المحمرة

والجرجير المغسول جيدا ، وملابسه نظيفة مكوية خالية من البقع ، وكتبه نظيفة موضوعة في مكانها • وهو ماذا أعطاني ؟ •• لم يعطني حتى الولد الذي تمنيته •• فهو حتى الآن وبعد أربع سنوات زواج يرفض أنجاب الاطفال •• الوقت لم يحن بعد ! حتى شككت في الامر •• وذهبت الى الطبيب أعرض نفسي ، وكان ذلك قبل رؤيتي لهـذا العربيد وفيق •• وقال الطبيب •• ليس عندك أي مانع •• اذن ما المانع •• مشيئة القدر فقط •• طلبت من زوجي أن يقوم بعرض نفسه على الطبيب ولكنه استنكر الامر في بشاعة •• وكأنني نطقت بالمحرم •• ولم يرض أبدا أن يستمع الى قولي مرة ثانية •• وغير الموضوع تماما ••

أعيش مع رجلين خلقا من الحجارة •• خلقا ليكونا أصناما تعبد وتستعبد ، وأنا روح وجسد واحساس وفكر وجنون •• وأسـأل عن جنون أبي المبكر •• أسأل أخي الأكبر •• أسأل خالاتي •• أسأل عماتي •• ولكنهم يستنكرون أسئلتي التي جاءت متأخرة ولا أسمع الا قولهم •• « الله يرحمه كان رجلا طيبـا •• لم يتحمـل الحياة ومشاكلها وضغوطها •• كان انسانا حساسا ذكيا •• لكن ذكاءه أضاعه وهو مازال في ريعان الشباب » •

وأنا ألم تصفوني في طفولتي ومراهقتي •• بالحساسة الباكية دائما التي تبكي لاقل الاسباب هونا وشأنا •

ما الذي أخـذته من أبي •• ولم آخذه منـكم •• كنت أبكي بالليالي •• وحيدة ضـائعة ولكني ملتزمة أيضـا بمواعيد العمل ودفاترة والخروج في البحث عن حالات العمال والموظفين •

وفي الوقت نفسه ناقمة على نفسه •• لانني أمة مستعبدة لزوجي في البيت ولرئيسي في العمـل •• الكل ورائي •• الكل خلفي يوجهني •• يأخذ ولايعطي ، يكذب •• وينافق ويضحك •• وأنا

الوحيدة التى لا أعرف كيف أسير طريقى ٠٠ كيف أسوس نفسى من الداخل ٠٠

كدت أجن ٠٠ أحكى لوفيق ٠٠ يبتسم فى وجهى ٠٠ ويقول لى :نك فى حاجة لايام راحة ٠٠ لماذا لا نسافر معا الى الاسكندرية ٠٠ وماذا أقول لزوجى وماذا أقول لنفسى ٠٠ وماذا أقول لك ٠٠ وأنت تحتقر هؤلاء النساء ٠٠ ويضع أصـــابعه على فمى قبل أن أنطق كلمتى الحمقاء ٠

ـ ٧ ـ

يالغرابتى وشذوذى وأنا التى كنت أكره الكذب وخاصة النساء الكاذبات اللاتى يكذبن على أزواجهن وذلك فقط منذ عدة أســابيع لا غير ٠

على مائدة الافطار العامرة بالاصـناف الثقيلة ٠٠ حيث يجب أن يترك المنزل وهو ممتلىء تمـــاما لتحمل يومه المتعب ٠ وكان يقرأ الاهرام بتمعن ٠٠ كل حرف فى الصفحة الرابعة ٠٠

قلت له وأنا لا أقصـــد ما أقول ٠٠ وجهى شــمعى الملامح ٠٠ وقلبى مسعور بحب ذلك الشاب العائق الفائر بالحيوية قلت له :

ـ مدحت ٠٠ سأسافر الى الاسكندرية لمدة يومين ٠٠

وقبل أن يطوى الجريدة ٠٠ نظر لى بتمعن ولم يتكلم ٠٠ قلت أواصل حديثى :

ـ تركت لك الثلاجة مليئة باللحـوم وحمرت لك فرخة ٠٠ وأم فهمى ستأتى لك كل يوم حتى موعد العشاء ٠

قال لى : قلت لك من قبل أن هذا العمل شاق ولا يليق بك ٠٠ هل أكلم رئيس المؤسسة ليجد لك عملا ثابتا فى المكاتب ٠٠

قلت له وكنت أعيد كلماتى بأنى أحب عمـــلى كما هو ٠٠ أرى الناس على طبيعتهم ٠٠ فى عقر دورهم ٠

كما أنى لن أتأخر أكثر من يومين ٠٠ وسأنزل عند صـــديقتى سماح فى الاسكندرية ٠٠ لم أرها منذ مدة طويلة ٠

وكان يسمع عن سماح ولكنه لا يتذكرها ٠٠ صديقة من أيام الطفولة ٠٠ مازلنا على صلة عن طريق الخطابات ٠

انتظرت حتى مغادرته البيت ٠٠ واتصلت بوفيق ليقابلنى عند القطار ، كنت فرحة منتشية كطفلة فى العاشرة تلعب لعبة جديدة لأول مرة ، رتبت حقيبتى ٠٠ نظرت لنفسى فى المرآة ٠

وتركت البيت ٠٠ كأنى منومة مغناطيسيا تحت تأثير شخصيته الطاغية ٠٠ أصبحت لا أرفض له طلبا ٠٠ مطيعة دوما ٠٠ أصبحت له اليد العليا على حياتى الآن ٠

قبل أن أقابله عند القطار ٠٠ حجزت تذكرتى ذهاب وعودة ٠٠ مر على سفر القطار كلمحة مضيئة ٠٠ أول مرة أشـــعر به بجانبى وليس أمامى ٠٠ كوعه يلامس كوعى ٠٠ يلامس صدرى ٠٠ أرجلى تشعر بدفء رجله ٠

نزلنا فى بنسيون الوردة الحمراء ٠٠ بنسيون يكاد يكون فارغا الا من بعض عواجيز ومسنين أغلبهم أجانب يعيشون فى البنسيون حتى نهاية عمرهم ٠

حجزنا باسم « وفيق عويس » وزوجته حجرة بسريرين ٠٠ هو الذى اختار الحجرة ، نظر لى بامتنان ٠٠ هل معك فكة ٠٠ أخرجت بعض الجنيهات ٠٠ أخذت صاحبة البنسيون ثلاثة جنيهات فقط ٠

دخلنا معا الحجرة ٠٠ قلبى يطن فى انفعال حاد ٠٠ أكاد أصاب بالاغماء أو القىء ٠٠ ماذا أفعل بنفسى ٠٠ تركنا حقائب ملابسنا ٠٠

ضمني ضمة خفيفة قبل أن نترك الحجرة .. لا أريد أكثر .. أنا مسيرة فقط .. أتوه في رائحته ، أتنفس جوه .. هواءه .. الهواء الذى يسمح لى به فقط .

أريد أن أتأمل حالى .. ماالذى أفعله بنفسي .. ماذا لو جاء يوم وتركنى .. أوتم تعيينه خارج القاهرة .. أو رغب أن يترك مصر كلها للعمل بالخارج .

ولاول مرة أفكر في الارتباط به .. حقيقة كما قال أنه يخاف من المرأة التى لها تجارب سابقة .. خاصة اذا كانت متزوجة ، تخدع زوجها وتسافر مع آخر سواء أصبح عشيقا لها أو لا .. ولكننى أيضا أعرف عنه حبه للمادة .. للمال .. انسان نفعى الى أقصى درجة .. يريد أن يشرب دائما .. يتناول غذاء طيبا مرتفع الثمن .. يدخل أماكن محترمة .. وذلك شيء واضح وبسيط .. بسبب نشأته الفقيرة المتواضعة .. بالرغم أنه يكسب الآن في اليوم الواحد أكثر من جنيهين .. يشترى منهما مكيفات وذلك أيضا بحكم بيئته .

حاولت في البداية منعه ولكن لم يذعن بل أصبح قاسيا مشاغبا .. وعندما أصررت في أول ليلة لنا في البنسيون الا يقترب من ذلك المخدر الذى يحمله معه .. وكنت أشاهده لاول مرة .

قضينا ليلة عصيبة في البنسيون .. حاولت أن أكون رقيقة معه ولكنه لم يتجاوب .. الليلة الثانية لم أهتم بمزاجه أو بماذا يفعله بنفسه .. أصبحت أنانية .شمطاء .. تريد فقط الحب في افضل صوره .

الحقيقة أن يومي الاسكندرية لم يكونا ممتعين بالنسبة لى .. اكره الاكل والموائد المليئة بالعظام .. أكره الخمر ولا أقربها .. وان كنت أحيانا اتناول كأسا صغيرة واحدة حتى مع زوجى لمجرد المشاركة .

كرهت تناوله الطعام بشراهة تسبب عسر الهضم .. وهذا ما حدث له فعلا .. كان يمكن أن أكرهه وقتهـا .. وفرحت داخل نفسى .. لانى أخيرا سأتخلص منه .. من ذلك الكابوس .. أعود الى حياتى الطبيعية السابقة .. زوجة تخلص لزوجها وبيتها وعملها فقط .

ظللت طول الليل .. ساهرة .. لم يغمض لى جفن .. اقارن بينه وبين زوجى ، أثناء ذلك .. كان يغط فى نومه بصـوت عال مزعج .

تركت الحجرة .. وخـرجت للشرفة .. اشاهد النجـوم والسماء الصافية .. لعلها ترشدنى .. قررت أنها نزوة وستنتهى بمجرد نزولنا القاهرة فى الصباح .

حمدت الله .. لانها كانت نزوة سخيفة .. لم تكلفنى الا ليلتين .. ولم يعرف أحد ولا حتى زوجى بالامر ..

استحممت فى الفجر .. صليت الفجر أثناء أذان الفجر والقادم من جامع سيدى أبى العباس .

شعرت بالراحة وعدت للنوم وأنا هانئة النفس .. أخيرا .. اصبحت نفسى ليست مسيرة ولا أمة للنزوات أو لرجل آخـر غير زوجى .

فى الصباح .. تناولنا افطارنا الشـهى الذى طلبه وفيق .. ودفعت حساب اقامة اليومين فى البنسيون وأخذنا تاكسى إلى محطة سيدى جابر ..

فى القطار .. نسيت كل اصرارى السابق .. قرارى فى الفجر .. وعدت أمة مسـتعبدة بمجرد أن نظر لى بعينيه اللامعتين .. وانصاتى الى صوته الساخن الذى ينهش صدرى عندما يتكلم ..

وأحسست أن جسدى يجاور جسده . تملكنى الخوف من ألا أراه مرة ثانية .. لا تعود عيناه تغمرانني بسحرهما .. نسيت كل تفاؤلى بأننى انتهيت منه وأنى قد تخلصت منه ، نسيت كل شىء وعدت أكثر عبودية وأكثر حبا .. لا أستطيع أبدا أن أهجره .. هو الذى فى يده الامر حتى النهاية .. وكان على أن أتركه بعد دقائق .. ستمر سريعا .

فى محطة مصر افترقنا .. هذه المرة .. أنا التى أخاف أن يهجرنى ، يتركنى .. يكون هو الذى أنتهى منى .. أخذ متعته ثم أصبح لا يهتم .. خاصة أنه فى الجزء الاخير من الرحلة كان باردا صامتا ..

أصبحت أكثر لهفة وهو يتركنى ، يمر أمامى فى خطوات سريعة متباعدة .

- ٨ -

لم يكن لخوفى بعد عودتى من الاسكندرية مكان .. فقد عادت علاقتنا العادية بيننا .. نتقابل كل ظهر ثلاثاء ، وذلك بعد تعيينه فى احدى شركات القطاع العام .. واستمراره فى العمل فى الورشة الميكانيكية بعد الظهر .

كان يعطينى ساعتين كل يوم ثلاثاء .. نتقابل فى أحد محلات الغذاء ثم نذهب الى صالة الشاى الهندى منفردين .. كل واحد لا يعرف الآخر الا فى داخل الصالة .

استمر اللقاء بيننا حتى قابلت زميلتين تعملان فى المؤسسة نفسها فى صالة الشاى الهندى واضطررت لتحيتهما .

فى اليوم التالى شرحت لهما ظروف مقابلتى مع ابن خالتى الذى كان عنده مشاكل عائلية وانتهى الامر .

في اللقاء الثاني ·· تقابلنا في شقتي ·· في الوقت الذي كان زوجي فيه يعطي محاضراته في المنصورة ·

دخل رفيق الشقة يستكشف ·· هنا حجرة النوم ·· حجرة الاكل ·· الصالة الصغيرة ·· الفازة الموجودة عند المدخل ·· الكرسي الخاص بزوجي أمام التليفزيون ·· الكراسي الصغيرة ·· الشلت الملونة ·· يتأمل الستائر ·· ينظر الى السقف ·· يتحسس الورق البارز المنقوش ·· يتأمل دولاب التحف الذي يضم بعض رقصات أسبانية الشكل ، حذاء هولنديا ·· طبق كريستال من تشيكوسلوفاكيا ·

يتأمل بكثير من الاعجاب والحسد ·· أركان الشقة ·· ضاعت الساعتان وهو يتكلم عن الشقة ·· يسألني عن ايجار الشقة ·· أين يقضي زوجي أمسياته ·· يسألني أسئلة حرجة كثيرة ·· لم تكن في حسباني وأنا أستضيفه في شقتي للمرة الاولى ·· عندما كان على وشك أن يغادر الشقة قال ببروده المتعالي : هل فكرت يوما في أننا لو تقابلنا قبل زواجك ·· كنا أصبحنا زوجين سعيدين ؟··

قال وهو يهز رأسه وكأنه يكلم خيالا سابحا في الهواء ··رمادا طائرا في الفضاء : ولكن لم يضع الوقت بعد · أمامنا عمر طويل ·

قال في حرارة وهو يضمني : ستكونين لي وحدي ··

ذهلت من حماسه لي وضمه لي بقوة على باب الشقة قبل أن أفتحه ليدخل الصمت والالم بعد رحيله ·

في الليل وزوجي نائم كعادتي ، أصحو لاكلم نفسي ·· أحاسب نفسي ·· أعذب نفسي ·· انه لا يريد أن يتزوجني كما بدا في كلامه ·· لكنه يريد أن يتزوج الشقة ·· انها ليست شقة خرافية ·· شقة صغيرة مرتبة فقط بعناية وذوق ·· ولكن بالمقارنة لسكنه تكون جنة ·· ومع هذا سأتخلص يوما من هذا الكابوس ·· أخاف

من بيئته ، من الوســـط الذى تربى فيه وعاش فيه ·· أخاف أمه السيدة الشغالة فى البيوت ·· أخاف عمته الحامل دائما ووراءها ثلاثة أولاد مرضى ·· وجدته العجوز واخوته الضائعين · أخاف من هذا الكوبوس الذى يحطم حياتى الآن ·· أين المفر ·· أين الخلاص·

فى اللقاءات المتتالية ·· أصبح يلمح بالحب ·· يتكلم عن الحب كرجل محترف ·· والكارثة أننى كنت أعرف تماما ·· أشــك فى حبه وولعه بى ·

ولكننى تحت تأثير مخدره ، لا أناقشه دائما مطيعة ·· لكن فى وحدتى ·· وسط الليل بجــوار زوجى ·· تنتابنى الهواجس ·· لا تهاجمنى الا وأنا بمفــردي ·· تهاجمنى بدون رحمة أشـــباح وأذناب الليل والخوف والحقد ·

أخيرا وتحت تأثير القوى ·· الوحش الضارى ·· طلبت منزوجى الطلاق ··

أعددت له عشاء رائعا عند عودته من المنصورة ·· جلست أمامه كتلميذة خائبة ·· لم ينتبه لى فى البداية ·· استمر فى تناوله العشاء ·· وفجأة سمعنى أقول له أننى أريد الطـــلاق ·· لاننى ارتبطت منذ مدة بانسان آخر ·

الجملة التى حفظتها ·· يجب أن اقولها سريعا قبل أن أنسى كلمة منها ··

توقف عن الاكل ونظر لى نظرة صارمة كناظر ينظر لتلميذه طائشة:
ــما هذا الكلام الفارغ الذى تقولينه ؟ ··

ترددت ·· واحترت ماذا أقــول ·· لم يكن هذا الشـــطر فى المحفوظات ·· تمنيت أن تبتلعنى الارض ·· تمنيت أن يكون وصل الى سمعه جملة أخرى ·· لم أقل ·· لم أقصد ما قلت ·· أخطأت مرة ·· ولنكن ·· لنكن متسامحين ·

قال فى قرف .. وهو يبعد طبق الاكل من أمامه .. يشـــعل غليونه ..

ومنذ متى تعرفين هذا الرجل الأفاق ؟ ..

انه يعرفه .. لا شك فى ذلك .. يعرف كل التفاصيل منذ مدة وينتظر الفرصة المناسبة .

وقلت له بعض الاشياء عن وفيق ..

قام غاضبا .. تاركا طبقة الذى لم يكمله .. علبة الطباق الخاص به وحده تاركا أثره على كل شىء فى البيت .. وكانت آخر مرة أراه فيها ، كدت أجن ..اتصلت بوفيق فى الورشة .. التليفون يرن بصورة منتظمة ولا أحد يرد .

فى تلك الليلة .. نمت وحدى فى الفراش .. خفت من الاشباح و للصوص ومن نفسى أكثر .. فكرت فى الانتحار أكثر من مرة .. فكرت أن أحرق نفسى عقابا وغفرانا لما حدث منى منذ ساعات فى حق انسان أحترمه .. قبلته وعشت معه سنوات .. أقل شىء أكفر به عن محنتى هو الابتعاد عن ذلك الافاق المتعالى .

فى الصباح .. دخل النور الحجرة .. أضـــاء كل شىء .. أحسست ببهجة رائعة وأنا أنظر لنفسى فى المرآة .. أرفع ذراعى فى دلال .. أفرد شعرى على وجهى .. أتأمل وجهى وخصـــلة من الشعر تلتصق بجبهتى أتأمل قميص النـــوم .. صــــدرى البارز لواضح التكوين الظاهر من الرداء الحريرى ..

أمسح بيدى على جسدى .. أداعب نفسى .. أحس أنى قد ولدت من جديد .. سأتصل بوفيق .. كما قال لى حدث بالضبط .. كما أمرنى فعلت وكانت النتيجة سريعة واضـــحة . لم تأخذ منى سوى عدة دقائق ملتهبة .

علينا أن نكون دائما قاطعين حادين كأمواس الحلاقة .. حتى ولو جرحنا أنفسنا أو الآخرين .. علينا فقط أن نكون أيضا حذرين .
انها كلماته ..

بعد قليل وأنا أعد افطاري .. أضع اسطوانة أحبها فى البيك اب .. المنزل جميل وأنا أطير فيه وحدى .. الضـــوء يدخل من كل مساحة مفتوحة على الشارع وعلى السماء وعلى الارض .

الضـــوء يجعلنى جنية مســحورة باللهب الطبيعى .. مجنونة بالشمس الساطعة بالسماء الزرقاء .. بالحب .. بالاشراقة .

وأنا فى قمة نشوتى مع الموسيقى التى أحبها .. أقضم شريحة من الخبز المحمر .. يدق جرس الباب .. يدخل أخى .. ضخم متجهم قاس كامبراطور .. وراءه ثلاث سيدات يلبسن السواد .. .. وجوههم الكابية، وطبيعتهم أقرب الى التعازى .. لم يروا الصباح الجديد ، لم تمر الشمس عليهم .

قلت لهم : لم أعرفكم .. فى البداية .. الثلاث ســيدات هن خالاتى « رشدية وسنية وسميحة » وأخى عبد الســتار الذى كان بمثابة أبى الراحل .

قدمت لهم الشاى .. رفض الجميع .. قال أخى وهو يتصــنع الوقار : الذى فعلته مع زوجك أمس ؟

وقالت خالتى سنية : هـــل جننت حتى تقولى هــذه الاقوال لزوجك ؟ ..

وقالت خالتى سميحة : زوجك سيد الرجال .. والله لو كان ده حصل على أيامنا .. كنت أصبحت الآن فى خبر كان .

وقالت خالتى رشدية : أســألوها الاول عن الســبب .. يمكن الصبية غضبانة مع زوجها .. اسمعوا الاول كلامها ..

واستمع الجميع لى ·· كنت متنشية بالضوء ·· كنت فرحة لان زرع القشطة الهندى أصبح لها ثلاث وريقات بدلا من أثنتين ·· ولان السماء الزرقاء قالت وأنا أفتح الخصاص ، تشجعى ·· سأكون معك دائما ·· مع الحب ··

وغضب الجميع ·· وقال أخى ·· سأتصل بخالك ·· رب العائلة ·· وسنبحث أمرك ·· زوجك لا يريد أى شيء من الشقة سوى كتبه وملابسه ، وسيرسل من يأخذها بعد الغروب · يوافق على الطلاق آذا برئت ذمته من المؤخر والنفقة وما شابه ·

لم ينس أخى ·· كأخ حبيب ·· لا يستطيع الوقار الا لحظات قليلة ـ طبيعته المرحة المتسامحة ـ لم ينس وهو يخرج أن يهمس فى أذنى يسألنى عن اسم ذلك الرجل ، عن مهنته ·· عن مهنة أبيه ·· عن مكانته الاجتماعية المرموقة ··

قلت له ما أعرف ·· وتركت القدر يسيرنى ·· على ضفافه أو مع أمواجه المتلاطمة ·

ـ ٩ ـ

اجتمع مجلس العائلة الموقر ·· الخال الاكبر يتصدر المائدة ·· على اليمين الأخ الاكبر ·· فى الجانب الآخر جلست الثلاث خالات، واحدة فقط معى ·· مهما فعلت من فضائح وهى « خالتى رشدية »

بدأ الاجتماع صاخبا غاضبا وانتهى لقراره بعد ساعتين زمن ·· لم أحضر بالطبع مجلس العائلة الموقر · وصلت الانباء فى عصر اليوم التالى عن طريق خالتى « رشدية » ·· الجميع يرفض بدون استثناء حماقتى ·· خاصة بعد ما جمعوه من المعلومات بخصوص الرجل الجديد فى حياتى وعرفوا أين يسكن ·· وصناعة والده الله يرحمه ·

كان القرار .. اذا واصلت هذا العبث .. لن يدخل واحد من العائلة بيتى .. ولن يقبلونى بينهم ، أرســـل زوجى لأخذ متاعه وكتبه وما يخصه .. وبعد يومين وصلت لى ورقة الطلاق .

جرت الايام المجنونة بى .. كدت أشوه نفسى .. أقيس الارتفاع الذى القى منه نفسى حتى أسقط تماما جثة هامدة .. ثم فكرت فى وسيلة أفضل وهى الحبوب المنومة التى تساعدنى على قضـاء تلك الايام الرهيبة والتغيير التام فى حياتى .

عرفت أن زوجى انتدب الى جامعـة الرياض .. سيسافر خلال ايام قليلة .. لماذا لم يقل لى بشأن عمله الجديد فى وقته .. لماذا كان يخبىء كل أموره عنى وكأننى غريبة .. يجوز كان السفر قد أنقذنى من هذه الورطة .. أصبحت أرى وفيق تقريبا كل يوم .. ازداد حبه واشتعاله بى .. كان يطمئننى باستمرار أنه قادر على سعادى وتعويضى عن الايام الماضية . لم أكن أشكو أيامى الماضية .. كنت أشكو فقط علة نفسى الهشة الضعيفة الخائبة أمام رجل له وسامة معينة .. وقدرة على تحريكى كالعرائس المربوطة بطرف خيط .

بعد ثلاثةشهور بالتمام .. تم عقد القران فىبيتى .. وأصبحت زوجة وفيق .. لم يحضر حفل العرس أحد من عائلتى سوى خالتى رشدية .

رجوته وفيقرجاء خاصا الا يصحب أحدا من عائلته فى ذلك اليوم الحاد الطبع ، ولكنه رفض .. وأخيرا وافق أن تأتى أمه وعمته .

عند الغروب وصل وفيق .. وراءه أمه وعمته وصديقان ليكونا شاهدى العقد .

كانت أمه ترتدى رداء أسود قصيرا باهتا وكأنه مستأجر من أحد المكوجية .. امرأة نحيفة ذابلة قصيرة زادتها الســـنون والحاجة

انكماشا .. تضع على رأسها طرحة سوداء غير مقصوعة .. لم تلتفت يمينا ولا يسارا وهى تدخل الشقة .. رأسها دائما فى اتجاه الارض .. تجلس على طرف الكرسى .. لا تنظر لاحد ، تجلس وحيدة ذابلة فى كرسيها ..

وذلك بعكس العمة .. التى دخلت ترتدى رداء منقوشا .. نقوشا حقيرة مبتذلة لكنها غامقة .. تنظر الى كل شىء فى جسارة وبلاهة .. تتطلع الى وجهى فى تفحص .. تترك مكانها .. لتتفقد أنحاء الشقة .. تتحسس هذا التمثال .. تمسح على هذه الاباجورة .. تشد الستائر كطفلة تلهو . لا تطيق أن تجلس فى مكانها الا دقيقة واحدة .. بالرغم من نظرات وفيق لها القاطعة الحسادة وأوامره الصارمة بأن تجلس فى مكانها .. لا تتركه حتى كتابة العقد وتوزيع الشربات على المدعوين القلائل .. كأنه ميت صاحبه غير مشهور وغير طيب وغير محبوب .

ولكن العمة لا تطيق أن تجلس فى مكانها .. تختفى .. لتراها فى الحمام .. تجرب حنفية الماء الساخن .. فى المطبخ ، فى حجرة النوم .. تتطلع لنفسها فى المرآة .. تضع قطرات من عطورى .

ضقت تماما من هذا الحفل الكئيب .. ولولا ضغط أصابع وفيق على مرفقى .. لكنت نهضت من مكانى .. ثائرة غاضبة على هذا النسب الجديد الذى انتهى اليه أمرى .

بعد قليل .. اختفت الام المنكمشة .. وأخيرا وجدناها .. فى المطبخ تتحدث مع الشغالة حديثا وديا خاصا للغاية .. تساعدها فى صنع الشربات .. فى ترتيب الاكواب .. فى العمل معها .. فى المعاونة بأى شكل .

وعندما دخلت عليهما .. كانتا تتسامران كأنهما صديقتان يعرفان بعضهما البعض منذ مدة .. لما رأتنى .. وضعت رأسها

فى الارض ، وتدحرجت ككتلة خائبة ضعيفة هشة الى مكانهـا في الصالون ·· تجلس على طرف الكرسى ·· ضائعة ·· ممثلة جيدة للخيبة والذل ·· بعكس العمة التى كادت تكسر أحدى الفـازات الكريستال أثناء تحريكها من مكانها على الرفوف التى تفصـل بين حجرة المعيشة والطعـام ·· ومع ذلك لم ترتدع ·· مبهـورة ، مدهوشة فقد أخذوها أخيراً الى السيرك أو حديقة الحيوان ·

الام تقف عندما تقدم لها الشغالة كوب الشربات ·· لا تستطيع أن تحترم نفسها ولو قليلا أمام خالتى رشـدية ·· التى تجلس تضع فى الاعتبار كل صغيرة وكبيرة ·· ستنقل كل هذه الاشـياء البسيطة الفاضحة الى أقاربى وأخى ويضحكون ويسخرون طيلة أيام الشهر القادم ، وأصبح أضحوكة فكهة تدعو للتأمل والحزن ·· وهذه هى نتيجة الطيش والحماقة ·

انفض السامر الصغير ·· وخرجت العمة المنقوشـة بالالوان المبتذلة وراءها الام الذابلة المنكمشة تبتسم الى الشغالة ·· وجـدت أخيرا صديقة فى بيت الاسياد ·· تهمس لها فى آذانها تدعوها الى زيارتها فى القريب العاجل ·

ـ ١٠ ـ

نسيت نفسى تماما ، وضاعت منى الكراهية والحقد والاشـمئزاز ·· وانا أرى رفيق أمامى عاريا ·· اصابع قدميه غير منتظمة ·· جسده الطويل الممشوق الجميل التقاطيع ·· الوجه الاسمر الضخم مثل ثور ·· تقاطيعه القوية الواضحة التى تشير الى أنى قد أصبحت أملك رجلا قويا ضخما ·· يحيطنى بالحب والوهم · تلمست أصابعه بحنان ·· تلمست وجهه ·· لا أصدق نفسى ·· هل أصبح العملاق ملكى ·· والى الابد · طالت ليلة الحب ·· ليس بالنسبة للزمن ··

ولكن بالنسبة للذكرى .. ضاعت الليلة سريعا ولكنها بقيت مسطورة محفورة بماء الذهب داخل أوردة وشرايين قلبي .. صدرى يملك لاول مرة ذكرى حلوة . لذلك العملاق الاسمر وجسده القادر على أن يعطيني النشوة الحقيقية .. والحب ما هو الا وهج سريع الجذوة .. سريع الخمود .

ولكنني قادرة على أستمرار وهج الحب بقدر استطاعتي .. سأستبدله بالفهم والتعود والذكاء .. ليس لى أحد غيره الآن .. الاقارب هجروني .. العمل ماعدت أهتم به . هو الآن كل شيء في حياتي .. اذن أستطيع أن أحافظ عليه بعيني ورأسي وحيويتي .

دامت اللوعة والوهج والنشوة خارج الفراش وداخله .. وحبه لى وقدرته على التمثيل والحبكة المسرحية ستة شهور .. بعد ذلك .. بدأ الفتور واضحا .. بدأ الملل يتسرب الى نفسه والى نفسى بالتالى .

أحيانا كنت أفكر فى حياتى العائلية المنتظمة العاقلة التى كنت أحياها قبل أن أقابل وفيق .. أقل ما توصف به هو الاحترام .. ووجود بشر كثير حولنا من نفس المنطقة على نفس الشاكله .. على قدر المستوى .

أما الآن فالجميع يرفضوننا معا .. له أصدقاؤه وله حيه الشعبى وأسرته الفقيرة الحقيرة المتداعية .. وأنا لى أقاربى وأصدقائى الذين يرفضون الزواج وذلك الارتباط ، الوحدة تقتلنى .. تغتالنى وأنا مازلت شابة نضرة قادرة على العطاء والحب .. لجميع البشر ، لجميع الاصدقاء .

كرهت بعض عاداته التى لم تظهر الا بعد الارتباط به .. كرهتها حتى حد السأم والقتل لنفسى ببطء .. وبدأ العملاق يصغر تدريجيا .. وزادت كراهيتى له .. وزادت عصبيتى فى مواجهته .. أنسان

بخيل يحسب كل شيء ٠٠ لكنه لا يقتر على نفسه وعلى أصدقاء المتعة الذين أصبح يسهر معهم كل ليلة في حيه الشعبى ٠٠ خمر ومخدر كل ليلة ٠٠ حتى أنه تجرأ فى يوم وأحضر برطمان جوزة وغابة وعدة حجارة وماشة ٠٠ رفضت في البداية أن أشعل له الفحم الخاص به، ولكنه أستطاع أن يقنعنى لاقبل بعض عاداته السيئة القبيحةالعربية على أمرأة من مثل بيئتى ٠٠ بالهجر والخصام والتجاهل لمدة أسابيع طويلة ٠٠

أخيرا خضعت ٠٠ أن أشعل له الفحم ٠٠ أضعـه فى الموقد ٠٠ اغسل برطمانه الخاص بمزاجه ٠٠ تجاسر مرة وأحضر بعض الاصدقاء من الميكانيكية والمعلمين ٠٠

فى هذه المرة ٠٠ نطقت وعنفته بعد نزول ذلك الرهط المتسخ الذى ترك بصماته الوسخة على كل الموائد الصغيرة فى حجرة المعيشة وعلى السجاد الفاخر والكراسى الاوبيسون ، يومها وكنا عند الفجر الجديد ٠٠ لاول مرة يهدد بتركى ٠٠ بل يتجـاسر على ضربى ٠٠ حتى أصمت ٠٠ والا جعلنى فضيحة فى العمارة ٠

بعد العراك أقتربت منه خائفة وجلة ، ومحبة عاشقة ، أتمنى أن أتلمس الدفء بجواره ٠٠ ولكنه أيضا تركنى للصمت والوحدة عدة أيـام ٠

أحن ليه أوقاتا طويلة ٠٠ واكرهه ساعات قليلة ٠٠ أصبح حبه ممزوجا بالكراهية والحقد ٠٠ حبا جبارا متسخا ممتلئا بالحقارة٠٠ ولكنه حب جبار خارق ٠٠ وتمنيت أن أموت ٠٠ وتمنيت أن تكون حياتى معه حلما سخيفا ٠٠ سأصحو منه لاجد زوجى السابق المحترم بجـــوارى ٠

ولكن بعد هذه الليلة السيئة ٠٠ لم يأت بأحد من أصـــدقائه الميكانيكية وأصحاب الورش ٠٠ لم يكن هو السبب ٠٠ لكنهم لم

يرتاحوا الى ذلك الجو الارستقراطى بالنسبة لواقعهم الشعبى الذى يجدون فيه ملاذهم وراحتهم .. بعكس ذلك الجو المنسق ..

بأحساسهم الشـــعبى وفطرتهم البدائية أبتعدوا عن بيتى .. ليرحمني ذلك العملاق الذى أحتقر عقله ونفسه .. وأحبفقطبقوته وماهيته الطبيعية من شكل بدائى .. واكره الكثير من عاداته التى لم أستطع تغييرها – يرتدى الجورب أكثر من يومين .. ولا يرضى أن يغير قميصه أو جوربه الا بعد الحاح مستمر منى . ورغم أننى حاولت أن أغير بعض عاداته الحقيرة التى جاء بها من حيه .. أصبحت اتضايق وأتشاوم وأصارع نفسى الخائبة الهشة .. ولكن يمضى الوقت أصبحت عاداته تلك القبيحة فى دمى .. صرت أقبله علىعلاته .. اقبله وأنا أراه أنسانا مكروها حقيرا بخيلا خاصة مع أسرته ..

جاءت لى الام المنكمشة أكثر من مرة تطلب مساعدة أبنها الذى أصبح بعد زواجه لا يهتم بها أبدا ولا بأخوته الثلاثة « الصيع » . كنت أحس بمشاعر تلك الام التى أنجبت ولدا عاقا .. كنا معا فى المشكلة نفسها . تزوجت أنا عاقا حقيرا وأنجبت هى عاقا دنسا .

ولكن مع ذلك بقى حبه متغلغلا دخلى .. ينبش بأظافره أحيانا .. ثم يتمطرعطرا رائعا بالحيوية والحنان..يأتى ليتحسس صدرى ووجهى وأشم رائحة نفاذة معطرة بالحنان لبضع دقائق .. ثم يعود ينبش بأضافره المتسخة فى قلبى وصدرى .. يدمى نفسى ويدمى روحى .. وأتحول مع الوقت الى أنسانة مشوهة من كثرة التجارب المبتذله أصبحت أرضى بأقل القليل .. تماما مثل السيدة العجوز التى لا تنظر فى وجوه الناس أبدا .. وانما الى الارض .. فهى حقيقتها وهى ما تستحقه .

حتى كان ذلك اليوم الذي جاء لى فيه معلنا أختياره للسفر الى بون فى بعثة عمل لمدة أربعة شهور .. فى البداية أسترحت للفكرة

.. أخيرا سأتخلص من الحب..لعل الله أرسل لى أخيرا طوق النجاة .. أربعة شهور .. أنساه خلالها .. أقيم نفسى وحياتى الضائعة مع ذلك العملاق الشرير الحقير النفس .

قد أتخلص من ذلك الكابوس المخيف الذى يسمونه الحب .. قد يكون الله أرسل لى موضوع السفر والرحيل عنى لمدة أشهر لكى أعود الى نفسى الطيبة الراضية .. أمامى الكثير من العمر وأستطيع أن أعيش تجارب أخرى وأحيا حياة طبيعية وليست حياة مستعبدة موصـومة .

ولكن مع مضى الوقت وأستمراره فى الاستعداد للسفر .. ملكنى الخوف .. أن ينسانى هو فى تلك المدة .. أن يرتبط بأخرى خلال تلك المدة .. أن يعرف أجنبية تستطيع أن تعطيه مالا أسـتطيع من الغنى والخيلاء وترف الحياة الذى يعبده وحده ولا يعبد غيره .. لا يعرف مشاعر أخرى سوى شعور الغنى والاستغراق فى المتع التى لا يقدر عليها سوى قلة من المترفين .

وهو بشكله الجذاب الرجولى سيجد ألف أمرأة أجنبية مهوسـة مثلى .. وأغنى منى .. وقد لا يعود .. فى الايام الاخيرة قبل سفره .. أصبحت مثل المجنونة الطائشة .. لا أريده أن يسافر .. لا أريده أن يتركنى .. أتصور أننى لن أراه ثانية بمجرد وداعه فى المطـار .

حتى ولو عاد بعد أربعة شهور .. سيعود لى جثة هامدة..لايمكن أن يستمر الحب الجارف أكثر من شهور .. الحب وهج ومهما طـال أو قصر .. سينتهى .. ولقد أخذت من زمن الحب أكثر من ستة شهور .. فحاقت على اللعنة آجلا أو عاجلا ..

لا يمكن للقدر أن يرضى أن يعطينى أكثر مما أخذت .. بالرغم

انه كان حبا ليس خالصا ·· بل ممتزجا بالحقارة والوحشية والابتذال والرخص ·

ولن يرضى لى القدر بأكثر مما أخـــذت ·· فلعله من العدل أن يعطينى الحرمان والالم القاسي والانفصال ·· ســواء بالموت أو بالهجران ·

وسافر في يوم ثلاثاء حزين ·· ودعته حتى المطار ·· كان نشوان أكثر من اللازم ·· عيناى تفحص زملاءه وزميلتين يسافرون جميعا على الطائرة نفسها ·· أفحص البنتين جيدا وأفحص الزملاء يتمعن · هل بعضهم أيضا فاجر مثله ·· ليكونوا معا مجموعة فاضحة طالبة للمتع والترف ؟!

وسافر والقلب يمتلىء بالحزن ولا يفيض ·· يحتفظ بكل الحزن والشك اللذين تمتلىء بهما الدنيا ·· ولم يأخذنى العمل فى ذلك اليوم ·· دقائق الساعة رتيبة مقززة ·· كأنها أسياط تنز على جسدي وعلى قلبي ·· والموت صعب المنال ·· والعذاب سهل وميسر البشر ·

وبعد السفر لم يرسل سوى خطاب واحد ·· وأصبحت أعرف أخباره من زوجة زميل له ·· أرسل لها زوجها ستة خطابات ·· وعرفت من زوجة الزميل موعد وصول بعض منهم الى العاصمة ·· وأصبحت أعد الشقة لتكون جديدة ·· لرجلى الذى يعود بعد غيبة ·· كانت أسعد أيامى ·· أجمل أيامى ·· الايام الحلوة القليلة بعد رحيله وأنا أرتب الشقة ، أنظفها ·· أجددها ·· لتكن هناك جنة أخرى هناك ·· جنة بعيدة تسمع عنها ·· وهاهى جنتى أخلقها أنا ·· تصلح للمحب للغائب الذى سيعود بعد أيام قليلة ··

لم يغمض لى جفن طوال ليلة العودة .. أحيانا أفـــرح وأتخيل قربه .. أحيانا أخاف .. ألا يعود مع المجموعة .. هو الوحيد الذى لم يرسل تلغرافا ينبئنى بوصوله .. وكنت أعرف عنه جشعه وحبه للمال .. ولكنه قطعا سيعود محملا بالاشياء التى يستطيع تصريفها وبيعها .. ان ينتظره فى الجمرك .. حتى اذا لم يرسل التلغراف لتهدئتى .. سيرسل لينتظره ذلك الانسان القادر على خدمته .. وخدمة أشيائه .

هناك شيء غريب فى الجو .. ليلة غريبة ، أحلام رائعة ، أتخيل أعجابه بالشقة التى جددتها حسب ذوقه ، سيفرح بالنرجيلة الرائعة ذات المتر والنصف ارتفاعا .. وأحلام مريبة كلها شكوك وخيالات سوداء .

حتى جا الصباح لينقذنى ويضعنى أمام الحقيقة .. أحيانا الحقيقة أسوأ من الهواجس ، وذهبت مع شلة الزوجات الذاهبات لانتظـار أزواجهن .. وكلمت صديقا لى فى الجمرك .

وجلست فى مكان الانتظار .. أنتظره .. فأنا لا أملك سواه .. ووصلت الطائرة فى موعدها .. وخرج جميع الازواج .. والفتاتين .. الى صالة الوصول .. والقبلات والسلام والاشـواق والدموع والآهات والحقائب المحملة ..

ولم يخرج زوجى وسط هؤلاء الزملاء .. لم يعود العملاق الاسمر .. وأسأل زوج صديقتى التى توطدت صداقتنا معا أثناء غياب الزوجـــين .

فيقول لى أنه سيعود خلال شهر .. فهو مرتبط ببعض الاعمال .. لم يرسل معك حتى خطابا .. فيبتسم فى وجهى أبتســـــامة

مقتضبة ·· ويتركني أبحث عن نفسي ·· أجمع أشتات نفسي ·· أخرج شاحبة كجثة لا تجد من يدفنها ·· أحيط نفسي بصاج عربتي ·· من الزحام ومن البشر ·· ومن القبلات والاشواق والدموع · أتحرك ·· الى أين ·· لا أدري ·· لم يحضر ، لم يرســــل خطابا قصــيرا ·· حتى الخطــاب يستخسره في ·· خطـــاب لتوضيح عدم حضـوره مع المجمـوعة ·· للانسانة التي أحبته وارتبطت بحبه ·· نامت معه في فراشه ·· غسلت له قدميه ، تحملت كفيه على خديها ·· تركت زوجها ··· ألقت بكل أخوتها وأقاربهـــا وراء ظهرها ·· ولم تهتم ولم تكترث · حتى لو كانت امرأة ساقطة يدفع لها عند كل زيارة جنيهين كاملين ·· كنت أستحق منه خطابا ولو من سطرين ·

دوت بالعربة أكثر من مرة في الشوارع ·· وسمعت أكثر من من سائق ينعتني بالجهل وقلة الحكمة في قيادتي للعربة ·· أخيرا أوقفت العربة عند باب العمارة ·· أصبح البنزين على وشك النفاد ·

دخلت من باب العمارة ·· لالحق بالمصعد ·· وكان قد بدأ في الصعود ·· لكنه عاد وفتح لي الباب شخص كان بداخله ، شاب نحيف يمتلك وجها رائعـــا على قدر كبير من الوسامة والطيبة ، عيناه تشتعلان بالرقة ·· طالب في كلية الطب ، يسكن في أحدى الشقق بالدور الذي أسكن فيه ·

تقابلنا أكثر من مرة عند خروجنا في الصباح من أبواب الشقتين ·· تحية بسيطة من العيون ، ايماءة من الالوجوه ·

لفت نظري تأدبه وخجله والابتسامة الموجودة دائما على شفتيه ، تضيء روحه الوجه النحيف الرقيق المحدد الملامح السريع التأثر ·· كان يلوح لي د ئما أن كل ما في قلبه ظاهر على وجهه الطفولي البسيط

فتح لى الشاب باب المصعد ·· لاصعد معه ·· لا أستطيع أن انظر فى مرآة المصعد ·· أخاف أن أرى الدموع تتحرك فى مقلتى ·

سألني الشاب : هل هناك ما يكدرنى ؟ ··

لم أرد ·· كنت راقدة فى وسط كومة من الهم والحقد الخاصة بى وحدى ، لا يستطيع أحد أن يتخيل ما بنفسى الآن وفى هذه اللحظة ·· مهما وصفت ·· مهما أسهبت فى الوصف ·· الغيظ كان أقوى مشاعرى ·· الغيظ من نفسى ·· لانى وقعت فى غرام انسان قادر دائما على اذلالى واعطائى قدرا عظيما من المهانة ·

يقف المصعد ·· يفتح الشاب المصعد لاتقدمه ، أشعر وأنا أفتح باب الشقة ·· أن الشاب بجوارى ·· لم يتركنى لحظة واحدة ·· أسمعه يسألنى فى حنان : اذا كنت فى حاجة لمساعدة أو معونة أنه يرى أنى لست فى حالة حسنة ·

هل يستطيع أن يدخل لى شقته يأتى ببعض الحبوب المهدئة ·· يرجونى ألا أرفض صحبة انسان فى ذلك الوقت ·· نحن جميعا نمر بلحظات مشابهة من اليأس والكدر ·· ولا يجب أن نخجل منها ··
فتحت باب الشقة على مصراعيه ·· يدخل حازم ·· هذا هو اسمه ·· يعطينى حبة مخدرة ، يقيس الضغط يأتينى بحبة مسكنة للالآم لبعض الوقت ·· يتأمل تلك المرأة المسكينة المحطمة ·· مازلت لا أصدق ما حدث ·· ذهابى الى المطار لاستقبال الغائب ·· وعودتى خائبة بدون حقائب ·· بدون هدايا ·· بدون رجلى العملاق الذى كنت أذوب شوقا للقائه ·

يخطر لى خاطر مسكن ·· هل يجوز أن يكون رفيق مريضا ·· أصيب بحادث والطائرة تتحرك فى طريق العودة الى القاهرة ··

ولا أهتم بالساعة المتأخرة ،أو لحظة الحب التى قد تجمع الآن بين زوجين بعد شهور من البعاد .. أتصل بصديقتى زوجة الزميل التليفون يرد بعد وقت طويل .. أسألها فى لهفة وأنا ألهث .. أن تقول لى فى صراحة .. ما هو موقف زوجى .. ولماذا لم يعد مع المجموعة .. أستحلفها بالله وبكل عزيز لديها ..

تختفى لحظـات صديقتى ، وهى متأثرة من صوتى ومن حالتى البائسة .. تأتى لتقول صراحـة بدون لف .. أن زوجى أرتبط بانسانة لا خلاق لها .. وأن زوجها يرى أن هذا الارتباط لن يدوم أكثر من شهر آخر .. فالشركة التى يعمل بها زوجى وزوجها .. لن تقبل تخلفه .. وغالبا أن رئيس مجلس ادارة الشركة سيرسل له فى ألمانيا يخيره بين الفصل وبين العودة ..

بعد هذه الصدمة التى لم أكن أستحقها وأن الامور كلها ستتضح خلال شهر .. سمعتها تواسينى بكلمات جوفاء ، تؤكد استعدادها لترك زوجها وشقتها ، والحضور لى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل لتخفف عنى بعض الآم الوحدة .

أشكرها فى حرارة .. لست وحيدة فى ثلث الساعة الاخيرة كما تظنين..أمامى يجلس حازم الذى مازال ينظر لى بتفحص ، كما ينظر الطبيب الى مريضته العرجاء المشـوهة ، يفكر فى علاج لحالتها المستعصية .

أنت يا حازم علاج لحالتى .. أسأله اذا كان يحب الشراب .. يبتسم .. أتصور أنه يضحك ..أسـنانه النظيفة تظهر من بين شفتيه الرقيقتين المبتسمتين دائما .

ـ أشرب ما تشربين .. ولكننى أيضا جائع .

وأقوم الى المطبخ نشطة كفتاة عاشقة فى العشرين ، لقد نسيت كيف أصنع أطباقا رائعة سريعة .. يستأذن منى لدقائق ، سيذهب

فيها الى شقته .. وأسأله خائفة.. ان كان والداه مازالا مستيقظين، يضحك بقهقهة ، وترتفع ضحكاتنا حتى السقف .. تتركنا وتنطلق الى السماء ..والداه ينامان بمجرد الانتهاء من البرنامج التليفزيوني.

يعود بعد قليل .. معطرا بعطر خاص يدغدغ حواسي .. معه عدة أسطوانات وألبوم فاخر للصور .. قطعا سيحكي لي حياته منذ أن كان طفلا صغيرا .. يحكي لي طفولة شقية وأبوين لا يفهمانه .. ومراهقة متعبة .. لا يجد أحداً يستطيع أن يروى له أسراره .. الى آخر حكايات الشباب عندما يشرب .. يركن رأسه ليرتاح ، ويسترسل في الحديث عن نفسه وعن الماضي والمستقبل المبهم .

وتصل لي أنغام وأصوات الاسطوانات في المطبخ .. ليست ناعمة ولا هادئة ولا حتى راقصة .. كما كنت أتخيل ذوق الفتى الرقيق الشاعر ، الطفولي اللامع .. ولكنها أسطوانات مبتذلة صاخبة ..

أفقت لنفسي وسط الضوء الخافت والاصوات الزاعقة .

وأجد نفسي أبكي بشدة .. أبكي نفسي الضعيفة الهشة .. وهو يحاول أن يتقرب لي بالكلمات .. بالنظرات .

أخرج من شقتي .. أتركني .. أريد أن أبقى وحدي ..

والضباب حولي والدموع تنزل على خـــدي .. عقلي به مس من الحزن والجنون ..

وأسمع خطوات قدميه تتجه نحو الباب .

وأسمع الباب وهو يفتح .. ثم يغلق عن الصمت الذي يحيطني من كل جانب ..

الكلاب والبحر



- ١ -

امواج ..

قليلة وفقاقيع نادرة ، طحالب خضراء مفروزة وسط الرمال .. ومراكب صيد قابعة داخل مياه البحر الابيض بدون حراك بمقدمتها الحادة .. واجسامها الانسيابية .

اشرعة تتمايل مع البحر المفرد وشباك الصيد ، المغازل الصفراء المفرودة على طول الميناء ونهايتها المحددة بأثقال الرصاص وقطع الفلين الملونة .

ورائحــــة الاسماك المميزة التى تختلط مع رائحة البحـــر. العاشق الذى يرمى بشباكه وفتنته لاسر القلوب الهشة التى تهرب من أحزانها وحيرتها اليه .. الى احضان السلطان المــــذب القاسى الغادر الغشـــــوم .

وأكوام السمك القادمة من مراكب الصيد الصغيرة .. تلقى على السقالة العريضة المقامة فى وسط لجة البحر ..

حركة الصباح المعتادة على خطوط السقالة والدعائم التى تحملها .. مجموعة من الرجال يراقبون أكوام السمك ، الاولاد الصــــغار يفرزون كل نوع على حدة .. مجموعة أخرى من الصيادين بلباسهم التقليدى والتلفيعة والشال الابيض حول الطاقية الســــمراء .. يساعدون الصــــبية والاولاد الذين يحملون المؤن والواح الثلج فى اتجاه السقالة من دكان المتعهد الوحيد المشــــهور فى الميناء « عبد الحميد النكشــة » .. الســــلطان الحالى للميناء ورئيس الجمعية

التعاونية لصيادى الاسماك وصاحب أغلب ورش صناعة السفن . فى كل بقعة فى الميناء صبى من صبيانه .. من مخازن الثلج والمؤن حتى أمكنة تهريب المخدرات القادمة بواسطة السفن الى الميناء .. والمعروف عن النكشة أن له باعا فى التعامل مع كل البشر الذين يعيشون حول الميناء من القوادبية حتى مدمنى المخدرات !

لم يستطع أحد حتى الآن أن يقترب من السلطان .. الا أذابته الايام .. طحنته الظروف ، ألقت به داخل عمق أعماق البحر ..

الصبية ينقلون السمك فى الطوايل الى حلقة الاسماك .. تبتعد المراكب التي قامت بانزال حمولتها عند مركز السقالة .. تتحرك لتاخذ خطا هادئا بجوار الشط .. شط حزين خال من البشر والمصطافين . وتقترب مراكب أخرى .. يساعدها الرجال بواسطة الهلب الذى يقومون بدفنه وسط الرمال الطينية .

صبى ينادى على أبيه المسن الذى أصبح لا يرى الا بصعوبة .. مئات من التجاعيد أصبحت تكسو وجهه .. كل يوم ، كل شهر كل سنة تركت أثر على وجه الرجل :

ــ يا أبويا .. ادينى حاجاتى ..

يقفز الصبى بقدمين عريضتين غليظتين مثل أقدام الجمل الى الشط، يرتفع على السور الحجرى ومعه مقطف خوص به الكثير من الكابوريا المستيقظة النشطة الصغيرة .

يجرى الصبى فى اتجاه سوق السمك القريب ، تكاد تدهسه عربة عليها أوقام جمرك .. وتلمع مثل طبق القشدة . لا يهتم ، يواصل مسيره .

يعود بعد قليل بحلويات وفطير ومشبك .. يقتسم ما معه مع

الصيادين وأبيه الذى يبتسم ابتسامة غامضة محيرة .

مازالت فى اليم أيضا المراكب الحمراء الضخمة الخاصة «بالطلاينه» القادمة لشحن أسماك الحيتان .. شرطهم الوحيد أن تكون حية وسط احواض المياه المعدة لذلك فى قاع المركب .

يهلل بعض الصيادين الذين تركوا مراكبهم الصغيرة الضئيله عند رؤيتهم لمركب زميل عائد .. يجسلون على سطح السور الحجرى طلبا للدفء وللاشعة الشمس الساقطة من السماء فى مساحات .. ولها عيون وخناجر تدخل تنفذ داخل مسامهم .

لحظة استرخاء رائعة مع الشمس .. وذلك حتى تصل (نوارة بنت حميدو الفارس) تسأل عن مركب زوجها .. ترك الميناء بمركبه منذ سبعة أيام ..

لا أحد يجيب عليها .. لا تجد اجابة واحدة .: هذه أول مره تطول غيبة زوجها الذى يخرج للصيد على طريقة « الشيراك » .. يمتلك مركبا صغيرا .. يصيد بواسطة أحبال طويلة من السنانير .. وذلك لطلب فروخ المرجان ، أكثر مدة سافرت فيها مركبة فى البحر كانت ثلاثة أيام .. ولم يظهر .. خائفة عليه .. من البحر وأهوائه وشذوذه .. قلبها يحدثها بالنكبة . وخاصـــة أنه رحـل وجاءت بعده (نوة الشمس الكبيرة) .. على وجهها الابيض السمين يظهر بوضوح الخوف والذعر .. ولا احد يريح قلبها ولو بكلمة واحدة .. زملاؤه على مراكب الشيراك الاخرى عادوا منذ ثلاثة ايام .. وهو .. ألم يكن فى صحبتهم فى عرض البحر .

يخرج الصيادون جماعات .. سواء كانوا يركبون « بلانسات أو شـــيراك » .

فى الفجر .. وقفت البومة اللعينة .. على جلسه الشباك بخلقتها المخيفة قبل أن يخرج زوجها الى البحر ، تشاءمت ولكنها لم تستطع منعه .. أو حتى تأخيره .. أو حتى الشكوى أو التعليق ، ودعته حتى الشط .. ثم عادت تضع ذعرها .. داخل قلبها .. توسده .. ليكبر كل يوم حبه حتى يزيد ويكاد ينفجر من داخلها .. لو تعرف فقط ما الذى حدث لزوجها .. مازالت عروسا صغيرة .. لم يتزوجا الا منذ ثلاثة أشهر .. بعد حب طال ، وقف أمامه رجال عائلتها بالمرصاد حتى سئموا التأجيل أو الاعتذار .. تحبه وترغبـــه فهو ســـــيدها وســـلطانها ..

وقفت زائغة البصر مهتاجة العواطف ، تشعر بالبرد فى جميع أطرافها بالرغم من أشعة الشمس اللاسعة .. عادة تظهر الشمس بعد انتهاء النوة .. النوة التى بدأت وزوجها فى البحر وانتهت وهو لم يعــد بعد .

تسأل كل صياد قادم من البحر أول ما يضع قدمه على « القزف »: الرصيف الممتد داخل مياه البحر عن زوجهـــا .. تراقب حركة البلانسات والدناجل والمراكب الكبيرة والصغيرة فى حزن شديد .. حتى تنتصف الشمس فى كبد السماء ، ثم تعــود قافلة الى حارة البطارية القريبة من ضريح سيدى ياقوت العرش ، تمسح دمعة الم فى الطريق من وراء العيون المتطلعة المشفقة عليها وعلى شبابها .

— ٢ —

شيوخ الصيادين مازالوا يحفظون بعض الاغانى القديمة من ايام الاحتلال مثل « الانجليز تمشى الكلب مع السبع » أو احنا كرهنا الانجليز ليه .. مش عشان بتحط الالغام فى البلاليع أمام المأمير ، قام ربنا جابهم قدام العلمين ووقفهم ..

وراء نافذة الدار المتوسطة الارتفاع المطلة على الخرائب .. تجلس « نوارة » .. عيناها غارقتان فى لجة من الحيرة والتأمل .. تتأمل،

تسرح مع مجموعة من الاولاد الصغار والشيوخ المنهكين .. الذين لفظتهم مياه البحر بلباسهم القومى « اللباس أبو لية والشـــامة الحمراء » يتحدثون وهم يخيطون الشباك بالمنقاش ـ قطعة خشب على شكل الاصبع ـ

يحكى الشيوخ عن الايام البعيدة التى لن تعود .. وسط المجموعة يجلس « خليل سيدرا » .. الذى قارب على السبعين والد زوجها .
خليل سيدرا كان صيادا على أحد مراكب الحاج الكبير (سيد البرنس) .. الذى وافاه الاجل منذ سبع سنوات .. !

قال خليل سيدرا أيامها زجلا غير موزون فى مشهد جنازة سيد البرنس .. كانت كل المنطقة تحبه بالرغم من زواجه في نهاية أيامه بفتاة لا تزيد عن العشرين ربيعا .. سقطة فى آخر عمر الرجل لم تقلل من هيبته ولا أهميته ، كان يملك كل الميناء الشرقى .. بمراكبها وبلانساتها ودكاكين الثلج والمؤن .. كانت له ورشتان لصـــناعة السفن بجانب الميناء ..

كان يشرف على خروج البضائع من الجمرك الى خارج الميناء عن طريق مجموعة القواربية الذين يكنون له كل احترام ومودة .

كان رجلا خرافة .. يعطى أكثر مما يأخذ .. لا يغش ولا يخادع أبناء المنطقة .. كان أول صياد فى الميناء الشرقى يدخل الموتورات على المراكب .. بدأ حياته صيادا صغيرا .. رصيده حب الناس .

قال خليل سيدرا أيامها زجلا فى ليلة حزينة بعد أن فارقهـــم الرجل وبعد أن وسدوه التراب بأسبوع .. فى قعدة سلطنة فى دكان صـــديق ، يقابل فيها رؤوس الاموال الصغيرة القادمة من رشيد ومن البحر ..

قال سيدرا الزجل بطريقة تلقائية صاعدة من الداخل تعبر عن الحب العميق للرجل الذى ذهب ..

نهـــــار سبع الـــكريم رمضـــــــان

ياسامع القول .. أسمع نظمى عن الجدعان

قنـــــــديل شارع السيالة انطفـــــأ

يامـــــــا طلعت وراه جـــــــدعان

من أبـــــو العبـــــاس للميـــــدان

أمانة عليـــــك يا فاتـــح القـــبر

أبقى رشه بالحنة ماتخليش حصـــوه بيان

خـــــد دمع من أهـــــله ورش على أكفان

أمانة عليـــــمك يا فتح القـــــبر

ابـــقى بـــــص للمـــــكان

الى آخر الزجل الذى مازال اهل المنطقة يتذكرونه فى كل موسم .

خليل سيدرا كهل مجرب .. يحوى داخل صدره الكثير من حكايات الصيادين .. بدايتهم ونهايتهم وصراعهم مع البحر وخصومته الابدية لهم .. وانواع الاسماك التى كانت تظهر والتى باتت تختفى او لا يقبل الناس على التعامل معها .. خلف النـــافذة .. نوارة ترقب عواجيز الصيادين وهم يعملون بنشاط فى ترقيع الشبك وخليل سيدرا العجوز الذى أنهكته السنوات ومازال يثرثر .. يحكى عن الماضى الذى تركه .. دائما السعادة تلوح مع الايام البعيدة التى انتهت .

نوارة .. بالرغم من انصاتها للحظات لحديث والد زوجها .. الا ان الفكر والقلق كانا يبعدانها عن حكايات العجوز .. القلق الاسود

الذى يتضلب على مسرات الحياة ، وثوان ودقائق اليــوم ٠٠ ذهب زوجها منذ أيام ٠٠ هل يعود ؟ ٠٠ عاد الرفقاء ٠٠ زملاء زوجها من صيادى الشيراك ولم يعد بعد صيادو البلانسات ٠٠ سيعودون بعد أيام أخرى لن تزيد عن أسبوع ٠٠ معهم سيظهر الخبر اليقين ٠٠ هل أصيب زوجها فى حادث من حوادث البحر ٠٠ أحيانا يلتهمها الفكر القبيح الازرق ٠٠فتتصور أن زوجها ذهب ضحيةلاحد حيوانات البحر ٠٠ قد يكون مركبه الآن غاطسا فى اليم العميق ٠٠ أصيب فى ذراعه ٠٠ فى جسده ٠٠ فى وجهه ٠

مازالت تعيش بذكرى الايام التى عاشتها معه من قرب ٠٠ تحبه ويحبها ٠٠ أنه الرجل الوحيد فى حياتها ٠٠ الرجل الذى عرفتــه وأحبته والتصقت به ٠٠ وتركها وسافر لمقابلة قدره مع البحر ٠٠ ولكن ظله قابع مختوم على كل ذرة من جسدها وروحها ٠٠ داخلها وخارجها ٠٠ ذلك هو « محمود سيدرا » ٠٠ الشاب الرائع الذى لا يزيد عمره عن السابعة والعشرين ٠

عرفت نوارة محمود سيدرا عن طريق الجيرة ٠٠ نوارة تسكن مع عائلتها فى عمارة متوسطة الحال فى شارع رأس التين ، ومحمود يسكن فى مبنى فقير ، منشأ من الحجارة والاخشاب فى حارة البطارية ٠٠ ولكن العلاقة بين القلبين نشأت بعد حضور نوارة فرح مع أهلها فى شارع ابن صفوان ٠٠ فرح ضخم كبير ٠٠ ملأ الشارع صخبا وضجيجا بضرب على الطبلة ولعب بالسكاكين ٠

بدأت العلاقة ٠٠ بملاحظة عين عادية ٠٠ حيث كانت نوارة مع البنات فى عمرها يراقبن الفرح المقام فى شادر ضخم من نوافذ منزل العروس ٠٠ تابعت بعينها محمود وهو يلعب لعبة السكين المشهورة بين أبناء بحرى ٠

كان محمود يومها يرتدى قميصا أزرق بلون السماء وسروالا أسود ·· له أخلاق وتقاليد الصيادين القدامى ·· حركته ورقصته ولعبه بالسكين وذراعه وهو يحرك السـكين حول ذراعـه في اتجـاه قلبـه ·

رفع محمود رأسه الى أعلى ·· كانت البنات يقفن في الدور الاول ·· قريبا من الشارع ·· ابتسم محمود ·· وابتسمت نوارة ثم وجد الحب طريقه الى قلبيهما ·

لم تنس نوارة تلك الليلة أو تلك النظرة والوجه الذى ابتسم ، كانت تراه من بعيد ، كانت تحييه أحيانا وهى فى طريقها الىالمدرسة التى لم تستمر فيها بناء على رغبة الاهل ، خوفا من عيون الناس ·· وكلام الجيران ·· كانت تمتاز بجسد ممشوق لدن ، ممتلىء من عند الصدر وعند العجيزة ·· جسد أنثوى عصرى مخالف لمواصفات الايام القديمة ·· شهى بالنسبة لشباب هذا الجيل ·· تملك وجها به حلاوة وملاحية وذكاء بنات الانفوشى ··

نوارة من عائلة أقرب الى الغنى ·· أبوها كان صيادا عاديا مثل خليل سيدرا وزميلا له ·· لكنه كان أكثر ذكاء وفطنة ·· عمل حساب الزمن ·· اكترى مركبين وركب عليهما موتورين ونزل بهما البحر هو وأولاده الكبار فكانت سبيلا رائعا للحياة ·· لنقله من طبقة الصيادين الى طبقة أخرى أكثر احتراما ·· علم أولاده الآخرين حتى نهاية التعليم الجامعى ·· حتى البنـات يعرفن كيف يقرأن القرآن ويفككن الخط ··أصغر أولاده نوارة ··لم يمانع فىدخولها المدارس ·· لولا أن البنت لم يكن عندها ميل كبير للتعليم بالاضافة الى شكلها الذى يستدير يوما بعد يوم ·· تماما مثل والدتها ·· الزوجة الثانية لحميدو الفارس التى ماتت الصيف قبل الماضى بعـد حمى شديدة فى الامعاء ·· بعد شهر واحد مات والدها ·

وانتقلت نوارة لتعيش مع اخوتها من ابيها وزوجة ابيها الاولى فى منزل العائلة ..

بعد ذهاب الاحزان بمرور الوقت ، توافد الخطاب على نوارة .. احدهم كان الرجل الكبير اعظم واغنى الرجال فى الميناء وهو « عبد الحميد النكشة » .. الرجل الذى يمتلك عشرين مركبا للصيد وورشة ضخمة بجانب الميناء وأيضا رئيس الجمعية التعاونية للصيادين .. والذى يأتمر بامره كل صيادى المنطقة حتى الاغراب الاجانب الوافدون على الميناء .

« عبد الحميد النكشة » .. رجل فى الخمسين قوى فحل تزوج ثلاث مرات .. ومع ذلك كان يرغب فى مصاهرة بيت حميدو الفارس بزواجه من الجميلة نوارة .. الا ان نوارة رفضته بشدة .. هددت أهلها والاخوة أن تحرق نفسها ليلة العرس ، وكانت هناك سابقة فى العائلة .. أختها الكبرى من الزوجة الاولى والتى لم ترها نوارة .. انتحرت ليلة عرسها لانهم ضغطوا عليها بزوج لا تريده .

كانت نوارة فى هذه الفترة ، مدلهة بحب الشاب محمود سيدرا تقابله فى السر .. هناك عند الصخرة التى يرتادها صيادو السنانير القادمون من خارج المنطقة . الصخرة التى ترتفع فوقها قلعة قايتباى ، التى يتحرك حولها الموج فى نصف دائرة .. هناك فى الحصن كان لقاؤهما السرى ، هناك عند الحوائط العالية الصاعدة الى السماء والتى تنتهى بدائرتين ومكعبات بارزة الى الخارج ومقرنصات اسلامية وانحناءة متمثلة فى الصخر المبنية منه ، هناك عند ممرات وسراديب القلعة القديمة التى بنيت فوق انقاض المنار القديم الذى كان احدى عجائب الدنيا السبع .. هناك عند الصور الملونة التى تمثل معركة عكا البحرية ، مراكب ورجال وصراع ، ورجال يذهبون للموت فى سبيل السلطان او القوة .. ومعركة الحوراء بين الاسطول المصرى والصليبى .

في القلعة الخالية من البشر على الدوام .. كانت فرصة لقائهما بعيدا عن العيون ، لحظات حبها المسروق بعيدا عن السيالة ورأس التين .. معهما طيور النورس المحلقة وسط البحر فوق خطوط الموج الابيض ورائحة اليود .. والمجهول الذى يحيطهما وذلك قبل أن توافق عائلتهما على ذلك النسب المتواضع مضطرة .

ـ ٣ ـ

على مقهى التركى ، كان الحديث يدور عن الغائب صياد الشبراك « محمود سيدنرا » .. الكل يؤكد على عدم عودته .. قد يكون الان فى جوف حوت أو داخل قرش مفترس ، أو يكون قد أصيب فى أحدى مطاردات البوليس للهاربين على القانون ، مات غدرا بدون ذنب جنـــــاه .

اشاعات كثيرة على المقهى .. تبدأ ، ترتفع ، تشتعل بدخول أناس جدد عندهم الكثير من الحكايات عن البحر وحوادثه الكثيرة .

« والنراجيل » تتحرك بين الموائد فى نهاية الليل ، جاء قادم من الخارج يحكى آخر حادثة ، حدثت بالقرب من الشط ، داخل أحد بيوت حارة طيفور ، عن مقاول « البيلجية » المشهور على الشط .. مقاول دهان ورشم المراكب الذى تزوج فى الصيف الماضى بعد سفرية قصيرة لليونان بقصد التهريب .. أصبح الحال صعبا فى السنوات الاخيرة .. السمك الكبير يأكل الصغير أو الزريعة كما يقال ، لا أمل للصغير الا فى السرقة أو التهريب .. الحظوظ والامانى ليست متساوية ، ليست عادلة ، زمن أغبر .. وسنوات تسمى بالسنوات العجاف .

تزوج من فتاة رائعة الجمال .. طيبة النسب من أسرة صياد مقيم فى السيالة عاش معها تسعة أشهر فى سعادة دائمة .. عرف معها التقوى والبعد عن الخمروالمخدر وصحبة السوء وابتعدتماما عن

القواربية الذين مازال سوقهم قائما بالرغم من البوابات المحروسة ورقابة البوليس .

ابتعد عن كل فساد ، أراد حماية بيته ، أكتفى بعمله فى رشم السفن ودهانها ورضى بتصبيبه فى الحياة .. ووسع رزقه بسعة صدره واهتمامه بعمله ، لا يساعده فى العمل غير فتى فى العشرين صبيح الوجه قوى الملامح عريض الصدر ، يفتح الفتى الورشة ويقفلها ، فتى قادم من بورسعيد .. جاء الى الانفوشى مهاجرا بعد النكسة .

جاء القادم الى المقهى ليحكى لكل الجالسين فى تبلد فى هذه الساعة من الليل .. حكاية مقاول البيالجية الذى دخل داره بعد الغروب ، وسقوط الشمس ليحل بدلا منها قمر نصف ساطع .. ليجد الذى أعتنى به فى غربته ، أواه فى ورشته مع زوجته الحبيبة التى لم يمر على زواجه بها أكثر من تسعة أشهر .

جن جنونه ، عندما قالت له زوجته فى قسوة أنها أصبحت لاتحبه وأنها لا تحب أحدا فى الدنيا غير ذلك الفتى .. هوى المقاول بساطور أتى به من المطبخ على رأس الفتى وهو يحاول الهرب وسط هلعه وخجله من معلمه ، سقط الفتى مضرجا بدمائه على الارض .. وسط صراخ الزوجة ليصعد الجيران وأولاد الحارة الذين كانوا يقفون على النواصى يثرثرون عن الاشياء البعيدة والهجرة اللازمة .. لا مكان لهم فى الحياة بعد ذلك فى أوطانهم .

وصخبت الحارة .. ولم تهدأ الا بنقل المصاب الى المستشفى غارقا فى دمائه بين الموت والحياة وان كان الموت أقرب اليه والمسألة مسألة وقت ، وقادوا مقاول البيالجيه الى القسم فى صحبة شرطيين .. خلفه المرأة تعوى .. فقدت زوجها وحبيبها ..

الخائنة لم ترع ذمة زوجها ، كانت صورة العرس تطل عليهما وهما فى حالة الاثم .

أخذت حكاية المقاول الليلة .. أضاعت وقت اللاهين .. توقفت حركة شد انفاس البوارى وصهيل المياه وسط الدوارق وابتعدت الاصابع عن فناجين القهوة .. وفتحت الافواه فى دهشة وعجب من الزمن الاحمق الذى لا يحب أحد فيه أخاه .. وبكى فتى صغير .. ولم يعرف أحد لماذا كان يبكى دون الناس جميعا .. كان يجلس فى الركن بجانب الحائط .. يستمع الى الحكاية فى ذهول وصمت بدون تعليق .

— ٤ —

● من جامع المرسى أبى العباس . قادم اذان الفجر .. عالى الصوت واضح النبرات . ونوارة لم يغمض لها جفن، تترك سريرها الى الصالة المظلمة .. حول الصالة حجرة واسعة جانبية ، حجرة حميها وحماتها . وهناك أيضا حجرة صغيرة تطل على منور صغير بين عدة بيوت قديمة قدم الحى نفسه .. حجرة « قاسم » أخى زوجها الاصغر المجند فى البحرية .

تدخل المطبخ الضيق .. تعد لنفسها فنجان قهوة سادة ، تتناول لقمة عيش جافة بملح قبل أول رشفة من القهوة السادة .. اعدة تعلمتها أيام كانت فى بيت أبيها .

اذان الفجر جاء وذهب . ولم يستيقظ سيدنا الكبير فى الاسابيع الاخيرة اصبح لا يستطيع صلاة الفجر .. عادت بفنجان قهوتها الى حجرتها وحيدة .. منذ أسبوعين فقط كان زوجها حبيبها يشاركها حياتها .

النور يتسلل بحذر الى الحجرة ، يمحو الظلام .. وظلام حياتها ، هل ينقشع فى يوم قريب بعودة رجلها ؟ .. هل هذا كثير على امرأة عاشقة محبة للحياة ..

تسمع قدمى أخى زوجها فى الصالة الصغيرة تتحرك فى البيت الصغير ، البيت الذى لا يزيد ايجاره عن الثلاثة جنيهات فى الشهر

•• أخي زوجها له عينان تبرقان دائما •• وقامة متطلعة الى أعلى ووجه أسمر لوحته شمس وبرود البحر • تشعر دائما بأن عينيه تنظران اليها ، تتفرسان فيهـــا ، حتى ولو لم يكن أمامها •• له نظرات جريئة لا تعرف الخجل •

انتظرت حتى سمعت وقع أقدامه على بلاط الحارة الحجرى •• فى طريقه الى يومه المبكر فى البحرية ، فترة تجنيده الاجبارية ، ثم فتحت خصاص النافذة، النور يملأ الكون ومن بعيد قامة المحارب تتوارى خلف أحدى النواصى •

أصوات العصافير المهتاجة على الشجر فرحة بيومها الجديد •• ما الذى يجعلها تطمئن الى اليوم الجديد كل هذا الاطمئنان ؟ ••

تترك الدار الى شارع البحر •• بدأ منذ قليل وصـــول بعض البلانسات التى تركت الشـــط منذ أيام ، تنتظر على الشط •• الصيادون الذين فى مثل سن زوجها •• ستسألهم أحدا بعد آخر •• قلبها يموج بانفعال غريب ، انفعال يشـــوبه الفرح والحزن والهيجان ولكن لا يشوبه أبدا اليأس •• ستعرف بعد قليل أخبارا عنه • قد يعرفون عنه الكثير •• ولم لم يعد بعد يانوارة •• ماذا ستفعلين ؟ وعيون الرجال جائعة متعطشة الى وجهك وجسدك •• تبحلق فيك فى ذهابك وقدومك الى الشط •• وبدون قصد وضعت يدها على صدرها ونظرت الى البحـــر الخالد الجامد ، من بعيد صوارى السفن الجديدة فى طريقها الى التشـــغيل •• الدوجيش هياكل السفن الضخمة المطلوبة للخارج •• الميدان والضـــلوع ، أولاد الصـــيادين قادمون على الطرق الاسفلتية أمام العمـــارات الحديثة التى بنيت لتخبىء أكواخ الصيادين — لاستقبال اخوتهم وآبائهم المتغيبين فى البحر •

وجلست على حجر ترنو ببصرها الى المجهول ، طيـــور النورس التى تتكاثر مع وصول اسماك البحر •• ترنو ببصرها الى حركة

الامواج الجامحة العاصية ، التى تأخذ الاحباب ، داخلها حقد ، داخلها كره ، سئمت الاسماك والاعشاب الرخوة والصخور، بها رغبة دفينة لكل ما هو بشرى ٠

هل يكون البحر قد التهم حبيبها ؟ ٠٠ هل يكون الموج الصاخب هو غطاءه الآن ٠٠ هل يكون حبيبها قد ذهب ضحية ذلك المتاع المفترس الذى لا يعرف الرحمة ، لا يحس البشر المنتظرين على شطه عودة القلوب الدافئة ٠٠ ناعم ملون كالثعبان على السطح ولكن داخله شيطان كاره لكل البشر ، لكل الاجساد التى تحمل قلوبا عامرة بالحب ٠

والامواج تصخب تتحرك ترتفع ٠٠ تترك أثرها على ملابسها ووجهها ٠٠ ثم تعود الى الخلف وهكذا دواليك وسمعت صرخةفرح ٠٠ بدأ نزول الصيادين الى الشط ، تتحرك نوارة فى خفة خارجية ٠٠ لكن الهلع يمسك بتلابيب قلبها ٠٠ لاتريد هذه اللحظة القاطعة الحاسمة ٠

الانتظار أفضل الف مرة من المرارةوالالم والضياع٠٠ تريد أن تبكى ، ولكن حتى البكاء صعب فى هذه اللحظة ٠

وتسأل بعينها الصيادين الذين يخرجون من الميناء ٠٠ تاركين الاولاد يحملون طوايل الاسماك ٠٠ بعض الاولاد يعدون بالمركب من « القزق » الى حيث الشط الطويل الممتد ليربطوها بالخطاطيف٠

واقفة من السابعة حتى العاشرة صباحا على قدميها ٠٠ لا يعرف أحد ما الذى حدث لزوجها أو مركبه أو الصبى الذى كان يساعده فى عمله . الجميع متعجب من عدم عودته ، مركب الشراك٠٠ مدة سفرها فى البحر لا تزيد عن ثلاثة أيام ٠٠ سافرنا فى رحلة الخمسة عشر يوما وعدنا ٠٠ البحر كان عاتيا ، قابلتنا نوة الشمس الكبيرة فى عرض البحر ٠٠ ولكن الله سلم ٠٠ لم تصب مركب واحدة فى النوة ٠

بعض القادمين الشبان يلمحون الجزع في عينيها ·· يرثون لها قليلا ولكنهم مستمرون في سيرهم الى المدينة والى أحبابهم بعد غيبة ايام في عرض البحر ، العواجيز منهم يربتون على كتفها يسألونها في عطف شديد ، اذا كانت تريد أو تحتاج شيئا ·· بيوتهم مفتوحة لها ·· أولادهم كلهم تحت أمرها ·

● من بعيد يظهر خليل سيدرا العجوز المتهـــالك الواقف بعكازه على الرصيف الآخر ، شامخا متماسكا لا يسأل أحدا ·· ولكنهم في الطريق يحيونه ·· بعضهم يقبله ، ويأخذه بالحضن ، والرجل واقف متماسك حتى نهاية وصول آخر بلانس بحمولة من الاسماك ·· ينظر بصعوبة في اتجاه البحر حيث تقف نوارة ·

خليل سيدرا أصيب منذ عشر سنوات ·· أثناء رحلة صيد ·· عندما كان الطريق الى الثراء هو الصيد بالبمب او الديناميت ·· أصيبت ساقه في أحدى تلك الرحلات ·· فوجب البتر في الحال ، بعدها توقف عن الصيد ·· مكتفيا بتسويق البضائع الخارجة من باب ٦ ·· يقود بعض الاولاد في نقل الثلج والمؤن الى مراكب الصيد في طريقها الى عرض البحر ·· عمل بعض الوقت كأحد المساعدين البارزين للسلطان المهاب عبد الحميد النكشة ·· كان زميله في صيد البمب والد نوارة حميدو الفارس قبل ثرائه ·

بعد ذهاب آخر صياد قادم من البحر الى داره وعشيرته ·· هـدأ الشط من ضجة الفرح ، عبر خليل سيدرا الرصيف الى الشط ، يحيط نوارة بذراعه ، لتعود معه الى الدار ·· لا أمل في العـــودة يعلم منذ الايام الاولى ·· ولكنه يتمسك بالصبر واحســاس الاب الذي لا يتمنى أبدا أن يفقد أولاده أمام عينيه ولكن البحر جبـــار وعات ولا يملك معه سبيلا ·· انه قدرنا وعذابنا وأيضا الهنا الذى يهبنا الحياة ·

عودى معى يانوارة .. الدار مغلقة علينا ولا نريد أن ترى العيون دموعنا أو يأسنا .. هذا هو قدرنا هذا هو مصيرنا ..

لن نقيم شعائر الحزن ، لن نلبس السواد ، سنأمل في عودته ولكن علينا أن نتحمل المصير المقدر علينا بين الحيـــاة والموت .. وراءهما تعلو أصوات الموج الصاخب المستمر في طغيانه وحركته .

على مقهى التوكى .. جلس الصـــيادون الذين لم يكونـوا فى البلانسات .. يحكون عن نوارة بنت حميدو الفارس .. الكل يعطى نفسه الحق فى التساؤل عن مستقبلها بعد أن أخذ البحر زوجها .

بعضهم قال أنه لابد أن تعود الى بيت العائلة والآخر رفض الفكرة تماما .. لا يمكن أبدا أن تعود زوجة الصياد الى دارها القديمة .. دارها الآن هى دار زوجها الراحل .

كان الصمت بينهما ، الحزن يلفهما فى الطريق الممتد ، كانت كل العيون عليهما .. تنظر فى اشفاق وخجل .

العواجيز قالوا بعد رحيلهما : لو كنا ذهبنا بدلا منه ، ولكن هذه مشيئة الرب ، الشبان قالوا ، كانا يحبان بعضهما حبا عظيما ، لم تستمر سعادتها طويلا ، نوارة مازالت جميلة ومرغوبة ، والحيـــاة أمامها طويلة .

الطوايل على رؤوس الصـــبية تتحرك الى حلقة الاســــماك تلقى بالاكوام على النضد المعدة لذلك وتعود لتأتى بالمزيد .. ويبـدأ المزاد الذى يجمع بين جميع انواع الاسماك كبيرها وصغيرها والذى ارتفع ثمنه أو الذى انخفض ثمنه .. المياس فى تجمعه الارستقراطى ، والبورى مرتب فى خطوط كأنه فى احتفال ، والسـوبيط حيوان الفقراء ، هلامى مسخ عليه خيوط سوداء .

وأصوات ترتفع وتتداخل خارج وداخل حلقة السمك ، بعض صغار الباعة يبيعون على طريقة الشروة . بعض البائعين يحيـون

خليل سيدرا أثناء سيره مع زوجة ابنه ‥ لا يعرفون مصابه ، بعض المشترين القادمين من وسط المدينة ‥ يتركون المساومة على الشراء وينظرون الى نوارة نظرات متفحصة ٠

دخلت نوارة في يأس الى حجرتها ، تركها الشيخ الى همومها تجترها في هدوء ‥ في صالة الدار القليلة المنافذ ‥ تجلس حماتها ، سيدة ربعة سمينة يظهر عليها الكبر والمرض والتي ما علمت بعودة زوجها بدون ابنها ‥ حتى لطمت على وجهها وصرخت في عنف ، تنعت الحظ السيء وسبب الشؤم ٠

الام ‥ أصابها الحزن والوهن ‥ فطاش عقلها وطار صوابها ، حاول خليل سيدرا تهدئة زوجته بدون فائدة ‥ هذه هي مشيئة الله ولا نستطيع أن نخالفه ، كما أن الامل لم ينقطع بعد ‥ ألم تسمعي عن فتحي شركس الصياد الذى غاب أربعة شهور في عرض البحر ثم عاد لزوجته وأولاده ٠

كان يعرف أنه يكذب ولكن ذلك في سبيل أن تهدأ الطائشة المخبولة قبل أن يجتمع الجيران في المكان الضيق من أجل المشاركة في أحزان الآخرين ٠

ولم يطل الوقت ‥ حتى دب الجيران واقفين أمام الباب ،يدقون الباب ، يدخلون في خيوط سحرية سوداء متشبعة قانعة بآلامها الخاصة ، يجلسون حول العجوزة ويزيد الصراخ ويتعالى البكاء بدخول خيط من النسوة أخريات ، وسيدرا لم يعد له مكان وسطهم ، حسب التقاليد والعرف ٠

خرج الشيخ متهالكا ، يتخذ لنفسه ركنا بجانب البحر ، يسند نفسه بصعوبة على عكازه ، ينظر الى البحر نظرات متحسرة ‥ نحبك وأنت تكرهنا ‥ تأخذ أولادنا من أمامنا ‥ وتسيل دموع حارة متدفقة من عينيه ، من القلب المشتعل بالنار ٠

ورائحة يود تدخل أنفه .. منحنيا على نفســه طول اليوم فى الركن المنفرد ، لا يعرف أحد طريقه .. غير البحر والاحزان .. ألم يعد ابنه جزءا من هذا البحر ..

لا يدفعه الى الرحيل بعد الغروب الا خروج بعض الاولاد الصغار من المدارس وقدومهم الى ذلك الركن المنفرد ..

عند شريط الترام المعطل منذ الصباح ، يسير شيخ طيب متهالك يقفز فى سيره ، ليعوض فقد ساقه تجمعت على وجهه فى هذه اللحظة بالذات ، كل آلام وأحزان البشر .

ـ ٥ ـ

● فى السماء تعاريج من السحاب والنتف البيضاء .. رجلان ناضجان يخلعان ملابســهما ، وينزلان الى المياه المتموجة .. يكاد أحدهما يقتل الآخر فى لحظة داخل المياه .

مجموعة من الصبية قادمون من فترة الدراســة المســائية يضعون كتبهم فى كوم على شكل هرم ناقص .. ثم يلعبون الكرة الشراب على الرمال الصفراء الناعمة .. ضلعا مرمى الكرة محددان بفردة حذاء على اليمين وأخرى على اليسار .. حارس الكتب .. صبى قوى متجهم الوجه عابس النظرات يرتدى لباس الفتوة ، ينام على الرمل واضعا رأسه على حقيبة كتبه ، فاردا ركبتيه فى اتجاه الموج الولهان الذى له سحر وغموض من ليس له حبيب .

قادم من داخل الكشك الخشبى الصغير الملون المغروس وســط الرمال .. يضع المناول أمامه زجاجتى البيرة وطبقا به بعض الفول السودانى ، ثم يتركه على الشاطىء مع همومه وآلامه ..

« قاسم سيدرا » جالس وحيدا مع الموج .. يشرب ويدخن فى عصبية مكتومة ــ الموج امرأة لعوب تكشف عن وجهها ثم سرعان ما تختفى ــ السيجارة بين أصابعه لها قمة من الشعر الشايب ، يتناقص باستمرار .. يحاول قاسم أن يجد لهمومه مكانا أو منفذا

غير صيده .. حتى ولو داخل الرمال الناعمة التي تحيطه من كل جانب .. أو على سطح الامواج العاتية الذاهبة والقادمة .. الامواج التي التهمت أخاه منذ شهور قليلة وتتركه بمفرده يتحمل أعباء وأوزار عائلته الصغيرة .

بعد التأكد من وفاة أخيه الاكبر .. أصبح من حقه أن يترك الجيش بعد استخراج بعض الاوراق الرسمية الموقعة .. يخرج الى الحياة العامة ليعاون أباه الشيخ في أمور المعيشة المجهدة .

مازالت زوجة أخيه « نوارة » غير مالكة لوعيها ، بعد شهور طويلة من اعلامها بالحقيقة ، رفضت زوجة أبيها وأخوتها من أبيها لجوءها ثانية لهم .. في الدار الكبيرة التي خرجت منها لتتزوج عريسها محمود سيدرا .. دون رغبتهم جميعا ورافضة في نفس الوقت المعلم الطموح « عبد الحميد النكشة » .

العجب في الامر .. أن النكشة بعد اعلامه بفقد زوجها محمود .. عاد ثانية يطلبها لنفسه .. هذه المرة من حميها الشيخ خليل سيدرا الذي كاد يجن من فجر الرجل الطموح الذي له زوجتان وسلطان عظيم ويطمع في زوجة ابنه المفقود .

بعد اثارة هذا الموضوع اللعين على النفس والفؤاد .. أصبح لزاما على الشقيق الثاني « قاسم » أن يتزوج من أرملة أخيه .

هذه هي سنة الحياة عندهم .. من أيام قرية المصرية الواقعة قرب رشيد ، الشاب يتزوج أرملة أخيه حتى ولو كان متزوجا وله كبشة أولاد ..

هذه هي تقاليد الحياة بين الصيادين الصغار المساكين الذين يعيشون على قوت يومهم .

كان قاسم يتمنى زوجة أخيه منذ زمن .. عندما كان يراها في الموالد والحفلات الموسيقية أيام أن كانت بنت بنوت ، وقبل زواجها من أخيه ..

أما الآن فهو مشغول البال بزينب ابنة صفوان القواربي المسكين المحال الى المعاش الآن بعد أن أصبحت كل أعمال الميناء تمر من خلال رجال أصحاب رؤوس الاموال الضخمة ..

وكان يتمناها زوجة مطيعة حتى أنه كلم أباه سيدرا في هــذا الموضــوع وذلك على أمل .. بعد أن تنتهى خدمته الالزاميــة فى الجيش .. ولكن الآن تنتهى خدمته الالزامية فجأة طبقا للظروف .. ولا يتحقق حلمه بزواجه أو سعادته بزينب الفتاة الطيبة المطيعة لدرجة الغرابة .. الانسانة التى تعيش بالحب والدعة .. وكأنها لا تعرف في الحياة سوى أنها تحبه .. لم تعرف فى الحياة سوى أبيها وأمها وهو .

كان يحبها لبساطتها ورقتها المتناهية ، ورغم حالة أسرتها التى تقل كثيرا عن حالهم .. وبالرغـم من أن أمور أسرته المعيشــية تغيرت من يوم دخـــوله الجيش ، فهو الذى كان يعين الاسرة على الحياة بالصيد .. خلق قاسم أقوى الرجال الثلاثة فى الاسرة .. معروف بقوته وتمرده وحنكته فى الصيد .

من البداية وهو طفل صغير يحن للبحر والصيد .. يشعربداخله بقوته ورجولته بعكس أخيه الراحل محمود .. الحالم الرقيق الذى كان يخاف دائما من البحر ويشعر بقلق تجاهه ولو أنه لا يقل عنه حنكة بالبحر .. لكنه كان مشغولا عن البحر بمشاكل الصيادين على البر .. والوقوف أمام المعلم الكبير عبد الحميد التكشة رئيس الجمعية التعاونية بحكم أنه أحد أعضاء الجمعية البارزين .

أما عن عبد الحميد التكشة فهو رجل معروف عنه سعة الحيلة .. بدأ حيـــاته صيادا عند أحد الخواجات الذين كانوا يمتلكون الميناء قبل الثورة ، كان يعرف كيف يحتكر الجميع .. كل النفوس فى اتجاه مصالحه .. كل هذا وهو مازال شابا يافعا غير بصـــير بالحياة .. فكيف الحال به الآن وهو يقترب من سنوات الغروب

.. ممتلئا سمنة وتجاعيد وكرشا بمحيط سبعين سنتيمترا وكيفية التعامل مع البشر ، وكيفية الايقاع بالذين يقفون ضده .

بعد الثورة .. وبعد التأميم .. عندما خاف « الخواجات » وخرجوا من البلد على عدة صور هوجاء .. اشترى عبد الحميد النكشة مراكب الرجل الذى كان يعمل عنده بثمن بخس على سبيل أنه فى يوم قد يعود « الخواجة » ليدير أملاكه وأحواله .. ومن هنا ضرب النكشة ضربته الرائعة فى بداية الثورة .. ثم دخل مع الحكام .. وتقرب من السلطة .. وأصبح رئيسا للجمعية التعاونية .. ولم يقف شيء فى سبيله أو فى سبيل طموحه الذى يزيد مع السنوات ..

وعرضت بعض البلاد المساعدة فى التنمية الجديدة .. أن تعطى الصيادين البسطاء ساكنى الانفوشى والسيالة مراكب بماكينات .. على أن تأخذ ثمنها على دفعات بعد عمل الصيادين عليها .. وبعد أن يكسبوا ثمن عرقهم وصيدهم ..

فما كان من الرجل الكبير .. « رئيس الجمعية التعاونية » الا أن أخذ كل الصفقة لحسابه وحساب أولاده وصبيانه .. وعلى هذا ضاع حق الصياد العادى الصغير المقصود بهذه الصفقة .

وعلمت السلطة وحققت .. وبعدها لم يتم شيء .. واشتكى محمود سيدرا أيامها للمحافظة .. وهدد بترك مكانه فى الجمعية التعاونية .. وحاولوا شراءه باهدائه أحد هذه المراكب أو حتى اثنين منها واحد له والآخر لاخيه قاسم .. يعمل عليه بعد خروجه من الجيش .. ورفض محمود سيدرا العرض المجزى .. عرضوا عليه أن يأخذهما ويبيعهما فى السوق السوداء كما فعل أغلب صبيان المعلم النكشة .. عرضوا عليه ذلك على شرط ألا يترك الجمعية وألا يثير المشاكل .. ولكنه لم يستمع اليهم .

فقط بعد عدة أشـهر من المشاكل أخذه البحـر ·· وأصبحت شكواه ورقة في سـلة المهملات ·· وأصبح كل الغضب ذرة في الهواء ولم ينتظروا حتى التحقق من وفاته ، بل قاموا بتعيين أحد صبية المعلم النكشة مكانه ، وأقفلت الستارة على مشهد آخر للحياة ·· مشهد أسود للفقراء الذين لا يعرفون كيف ينطقون ·· واذا نطقوا فلن يسمعهم أحد ·· فهم لا يتكلمون بلغة العصر ··

وعندما يترك الاسد هو ومجموعته وحدهم في الغابة ·· فانهم يزدادون ضراوة وتوحشا ما بعده توحش فكانت الفضائح تسمع في كل مكان ·· وخاصة في مقهى التركي واللبـان ·· الكل يثرثر ولكن لا أحد يفعل شيئا ·· كانوا يتندرون في المقهى بآخر الفضائح وهي دخول النكشة في مزايدة لتوريد أسلاك الصيد ، وبعدالمعاينة والاستلام ، يتضح أن السـلك لا يصـلح للصيد وانما لحظـائر الدواجن ·· ثرثرة وسخرية ·· ولكن السلطان باق كما هو ·

ويخرج قاسم سيدرا عن أفكاره الخاصة والعامة في جلسته على البحر في مواجهة الموج ·· على أصوات مشاجرة للاولاد الصـغار الذين كانوا يلعبون الكرة ، مع البوليس ، وتحرك بعض الصيادين الذين كانوا يجلسون في راحة وتلذذ تحت أشعة الشمس الغاربة ، للوقوف بجانب الاولاد ·

ذهب أيضا صبي المقهى أو الكشك الخشبي للمشاركة ·· فقط بقي على الشط حارس المكتب جالسـا جلسته الاولى ·· متجهمـا صامتا متأملا ·· خلفه الموج يصخب ·· يتقدم ويعود ·· ويتـرك أثره على الرمال ··

ـ ٦ ـ

● ويزداد غضب البحر ·· وتملأ بقع الميـاه المالحة الارصـفة والدور المتآكلة من القدم ·· والدور المسنودة بالقوائم والعروق ، ويتحرك جنود البحرية في أرديتهم ومربعاتهم الزرقاء ومستطيلاتهم

السوداء .. والترام الاصفر يصفر ويدور .. وجندى يحمل افطار الصباح فى حنان لمجموعته قبل الرحيل ..

وتلمع أشجار النخيل ، ويهفهف جريدها من بعيد .. وتدوى آلة دق الطعمية مع صوت ترتيل القرآن مع زقزقة عصافير الصباح .. وكمسارى يترك عربته فى المحطة الاخيرة ليشرب تعميرة الصباح .. وثلاث فتيات يظهر عليهن البؤس قادمات من الدور المتآكلة الفقيرة المظهر .. لا يعلم أحد من المارة كم من المذلة والانحطاط داخلها .. وفى نفس الصباح .. يجلس قاسم يشرب شايه الساخن بجانبه البورى الخامد النار ، تلفح وجهه برودة الصباح .. يشعر بتعب فى معدته وأمعائه .. يريد أن يتقيأ نبيذ الامس الذى شربه مع بعض الصحبة مع أطباق السوبيط النىء .. وذلك فى سبيل ساعتين من التوهان والبعد عن المشاكل وبؤس الاسرة بعد رحيل محمود .. وغضب الصيادين البسطاء وعدم قدرتهم على النطق ..

جاء قاسم الى مقهى الزمهيرى مبكرا وهو ليس مقهاه المفضل .. يجلس وسط مجاميع لا يعرفها .. من أجل غرض فى نفسه .. من أجل فتاة يهواها وتهواه منذ سنوات وقبل دخوله الجيش .. بيتها أمام المقهى .. نافذتها تطل عليه فى جلسته وحيداً منتظرا مشرئبا .

الخصاص مازال مغلقا .. وبائعة اللبن الصغيرة جالسة فى صمت ، يحيط بها بعض المعيز التى تلهو ببعض الاوراق .. وعصفور وحيد يحط على أرضية الشارع المقسم بخطوط الترام .. عصفور وحيد مثله تماما ..

ما فائدة الحياة التى جئناها بدون سعى أو حتى اهتمام ..
ما فائدة الحياة اذا عشناها مع من لا نحبهم أو نتربناهم .

الحياة ليست اختبارا كما كان مدرس التاريخ القديم يقول .. الحياة قدر ونوازل وفقر وألم .. على الاقل بالنسبة لمن هم على شاكلته .

وتنتشر المعير على طول الشارع أمام المقهى .. كما ينتشر أيضا الطلبة الصغار .. وعربة تقف .. عربة فاخرة زرقاء في ذيلها علامة جمرك الاسكندرية .. ينزل منها رجل فحل قوى ، في الاربعين ، يدخل المقهى يجلس مع بعض الرجال الذين كانوا في انتظاره .

انه يعرف الرجل القادم .. أنه أحد أعوان عبد الحميد النكشة .. أحد الخمسة الاقوياء الذين يحيط نفسه بهم .. عرف الرجل كيف يحيط نفسه بالاقوياء الذين ينصاعون لاوامره ، وهذا الرجل القادم هو المكلف بعمليات التهريب .. الذى يسعى لدى القوارية لنقل الحشيش من عند سيدى كرير أو البلوظة .

الرجل يهمس للمجموعة التى تحيطه .. يرسم بأصابعه على محيط المائدة .. لابد أن هناك جديدا .. عملية ضخمة ستلقى بجوار الشط .

النكشة هو سبب كل المصائب .. انتقل له الحال .. فزاد وتكبر وغالى وأصبح السلطان الوحيد .. يقال أن له زوجة رائعة .. ومع ذلك يطمع فيزوجة أخيه المفقود في عالم البحار والحيتان.

وتفتح باقى المقاهى أبوابها ويزدحم الميدان ويقل البيع عندبائع الطعمية القريب .. ويتصارع الناس على الحياة ، البسطاء والاقوياء ، الاغبياء والحمقى .

وأخيرا تفتح نافذة خصاص الحبيبة .. وتطل منها .. وجه مثل القمر لخافت الباهت .. آثار النوم على وجهها .. ويتطلع قاسم الى أعلى ، الى السماء الى المنزل الذى يكاد يقع على أساسه من القدم والتآكل .

وتبتسم زينب .. وتظهر أسنانها النظيفة الناصعة البياض ..

أريد أن أعطيهما بعض القوة .. أمدهما ببعض الحرارة .. ويستشعر وجهك بالاحمرار وأنا أضغط بأصابعى على مرفقك .. والمح ابتسامة غاضبة من بينشفتين رقيقتين كانتا مخلوقتين لصبى .

أريد أن أعطيهما بعض القوة .. أمدهما ببعض الحـــرارة .. وأعرف تمنعك وأعرف أيضا توهجك .. وأعرف انك تحبيننى .. وأعرف أيضا أننى لا أتمنى أحدا غيرك .

وتبتسم زينب وتشاور له وهى ترفع سروال أخيها عن الحبال.. السروال المقلوب على ظهره .. جيوبه البيضـــاء الكبيرة تظهـــر بوضوح .. ثم تحرك أصابعها بالموعد الذى ستراه فيه .. وهى تنقل ملاءة امها السوداء الكاحلة المرقعة .

ويزدحم الميدان بموتورات العربات وأصوات المارة .. وتختفى حبيبته من مربع النافذة المضـــيئة .. سيقابلها فى عصر اليوم نفسه أمام محطة مصر بعيدا عن عيون الجيرة .

وداخل المقهى يدب عراك جديد بين صاحبة المقهى وابنها الفتى .. قاسم يميل الى الفتى الاسمر اللون الحلو القسمات الذى يتكلم بهدوء وأدب ، ولكن الام شديدة السطواة والبأس ، تريد من ابنها أن يستمر فى التعليم ، ويريد هو أن يعمل فى المقهى ، الام تهدد ببيعه اذا فكر فى يوم أن يكون له شأن به ، الام برجوازية طموح والفتى لا يريد أن يفارق المكان الذى يحبه ، من هنا بدأ العراك .. وتدخل الاب لصالح الام التى لا تفهم مشاعر الجيل الحائر .. تظن أنها ستفهم عالمها وعالم الآخرين .. الفتى يهدد بالرحيل أو بالانتحار ، ويترك قاسم المقهى بقلب مطحون ..

ـ ٧ ـ

● فى حانة حقيرة فى شارع السيالة .. وســط أنواع الخمر المغشوشة .. يجلس وحيـدا معه كأسه والبسورى الذى يشد من أنفاسه .. وأطباق المزة الرخيصة .. ورواد فى نفس جبرته ويأسه يلفهم الغموض والضياع .. وقطط ضالة فقيرة تتمسح فى أقدام المخمورين الضالين .

فى قلبه مرارة ما بعدها مرارة ، فى فمه طعم العلقم ·· أحبابه يفارقونه واحدا بعد الآخر ·· وجوههم ، أجســـادهم ، أرواحهم تبتعد عنه ·· يريد أن يشدهم ولا يستطيع ·· أخوه الذى فارقه وكان توأم روحه ، حبيبته زينب الهشة البسيطة ·· التى قابلها عصر هذا اليوم ، وكان يتصور أنها ستغضب وستجن عندما تعلم أنه سيتزوج امرأة أخيه ·· مجبرا مضطرا أمام تقاليد عائلية بالية·

اندهش وهى تتقبل الامر الواقع ·· تحلف له أنها ستحبه الى الابد وأنها تقبل أن تكون زوجة أخرى له متى أراد ·· ستكون معه بروحها وقلبها ·· هذه المسكينة الهشة التى تدعى البساطة والدعة، ولا تعرف حتى كيف تغضب أو تستثار لان حبيبها سيتزوج من أخرى ·· سيخونها بمشاعره وجســـده مع أنثى أخرى ، ترضى بالواقع ·· انها ليست انسانة عادية ·· متخلفة آتية من عصر مضى·

زينب ما هى الا جزء هامشى من القطيع الذى يقبل الامر الواقع ، القابل تماما لفكرة السلطان والقطيع ·· القدر ·· الانسان المسير الذى لا يختار · ·لا أحد يعلم الغيب ، وبالرغم أنه أصبح لايحترمها بعد مقابلته لها عصر اليوم نفسه ·· فانه يشتاق اليها ·· فهو لا يبعد عن كونه واحدا من القطيع ·· حتى عند غضبه أو ثورته ·· فالتخلف يعشش فى صدره كالعصفور الراقد فوق عشه ·· معتقدات وهياكل آلاف السنين والموت والرب والخوف والسلطان ترزح فوق كاهله ·

انه فقط معذب لانه منقسم على نفسه ضائع كأغلب أبناء جيله ·· يزيد عذابه رؤيته لوجوه مجموعة عبد الحميد النكشة التى تنهب على الشط وداخل البحر وخارج الجمرك وفى ورش القواربية ·· تعيش كالديدان على قوت الغلابة والصيادين وطالبى متعة المخدر التى تعينهم على مشقة اليوم الطويل ·

لو استطاع أن يشق نفسه نصفين ·· نصفا يقتل ذلك الغادر عبد الحميد النكشة مع مجموعة رجاله ، يصارعهم واحدا بعد الآخر

•• يقتلهم •• ويقتل معهم التخريب والجشع المرعب القاتل •
والنصف الثانى •• الجزء المحب الرقيق فيه •• يعيش فيه مع زينب فى كوخ صياد مهجور ، يعيش فى دعة وألفة •

لو ينفصل الآن الى جزءين •• واحد للصباح وآخر لليل •• واحد للتوازل وآخر للجب •

سيذهب من غده الى عبد الحميد النكشة والجمعية التعاونية المتآمرة على قوت الصيادين والقواربية يطالب بحقه فى مركب الصيد، التكنة والموتور والشبك الصينى •• مركب أخيه الراحل الذى ثبتت وفاته داخل البحر •• سيذهب ليحاسب جمعية الحرامية والاوغاد •• ويحيل حياتهم دما وخوفا وهلعا •• ليشاركوه نفس المصير الذى لابد أن يلقاه فى دفاعه عن نفسه وعن قومه البسطاء ••

ـ ٨ ـ

● ابتعد رواد مقهى التركى يومين فقط عن مكانهم المفضل القريب من الشط والسقالة والبحر وورش المراكب والصوارى المطلة على البر •

مقهى التركى يستبدل نفسه ، بدلا من الدهانات ، بلاطات من القيشانى الملون القادم عبر البحر ، وبدلا من الكراسى القديمة كراسى مبطنة بالجلد ، وبدلا من لمبات النور الضعيف أقواس نيون عند المدخل وفى الاركان •

بعد يومين •• عاد الرواد الى مقهاهم وحديثهم المعتاد عن النكشة وأساليبه الجديدة فى اغراء الصيادين •• وعدم امكانية أحدهم الوقوف أمامه وأمام صبيانه •• انه الشيطان بعينه •• الشيطان بلباس الانسان •• المفترس لأمن واستقرار زميله الانسان •

لم يستطع احد الايقاع به •• ولا حتى رجال الحكومة •• بالرغم من التحقيق المستمر معه ومع صبيانه فى قضية السلك المغشوش الذى لايصلح للاستخدام •• المكوم فى مخازن الجمعية ••

والرجل يظهر كل يوم على الشط •• لايشغله ولا يؤلمه تحقيق ما •• كل تحقيق يجرى معه ينتهى الى لا شىء ، لعمره ما وقع •• اذا وقع أحدهم يكون أحد المساعدين ، فالرجل قادر حريص على نفسه وعلى ممتلكاته •

وينتقل حديث الرواد كالعادة الى نوارة أرملة صياد الشيراك محمود سيدرا ٠٠ وكيف تحمل أبوه الصدمة بقلب شجاع ، وكيف أن أخاه قاسم لن يرضى بالثأر بديلا ٠٠ قاسم سيترك البحرية بعد أيام قليلة حرا طليقا ، قادما للصيد ،قادما للنزال مثل أخيه ،قادما للعراك والمشاجرة التي لن يرضى بها بديلا ٠

تحدثوا أيضا عن طلب النكشة الغريب الزواج من أرملة محمود وأن خليل سيدرا رفض ذلك الطلب المؤذى للمشاعر ٠٠ كما أن نوارة رفضت أيضا العودة الى بيت أهلها القديم ٠

يقول خبيث أن نوارة مازالت تعود الى البحر فى الصباح المبكر لتشاهد مراكب الصيد القادمة ٠٠ لعل زوجها يعود بعد غيبة ، لم تفقد المرأة الملتاعة الامل ٠ حقيقة أصبحت تتغيب عن الشط لمدة أسابيع ٠٠ ولكنها تعود فجأة ، لتقف على السقالة تراقب العائدين بعينين مذهولتين ٠

يقولون أيضا أنه لابد لنوارة من الزواج ٠٠ آجلا أو عاجلا ٠٠ من أخي زوجها الصياد المجند ٠٠ قاسم ٠٠ هكذا تشاء التقاليد المتعنتة ، سواء رضيت نوارة أو أبت ٠٠ أو حتى لو كان قاسم مشغول القلب بفتاة أخرى ٠٠ كان يرتب للارتباط بها ٠٠

والحديث ذو شجون في المقهى المجدد مع القهوة والشاى ولعب الكارت ٠٠ والدمينو والطاولة حتى ساعات الليل المتأخرة وخاصة في أيام النوات التى لاتصلح للصيد ٠

ويترك الرواد من أهل النميمة حديثهم عن الغائبين ، لمراقبة معركة صـــياد وزميل له يمتلك مركبا صغيرا ٠٠ معركة تســتخدم فيها السكاكين ٠٠ ولا تنتهى الا بعد وصول أفراد بوليس الشط ٠

— ٩ —

● على عتبة الدار ، كانت تجلس زوجة خليل سيدرا النوبية الهرمة ، ذات الخمس شرط على كلتا الوجنتين ٠٠ رأسها ساقط في صينية كبيرة مسطحة ، تبعد الدينيبة والاعشاب عن حبات الارز الذى تعده من أجل طعام الغداء ٠٠ ومع ذلك ، كانت كل حواسها وأذناها مع زوجها وهو يكلم نوارة في حجرتها المفتوحة الباب ٠

سمعت زوجها وهو يطلب موافقة زوجة الابن الاول على الزواج من ابنه الثانى قاسم ٠٠ ونوارة تجيب كانسانة ضائعة سارحة فى

ملكوت خاص بها وحدها : ألا ننتظر يابا الحاج حتى عودة محمود من البحر .. ويتركها خليل سيدرا وهو يغالب دموعه .. وهو لا يعرف اذا كان يكلم انسانة تعيش معهم أو انسانة تحلق فى السموات البعيدة .. تركتهم الى عالم بعيد .. عالم البحر والقرش والاسماك النادرة .. الوجود والعذاب والحياة الواهمة ، المقبلة على الحياة في انتظار الغائب .. تهيم بها .. وتنتظر انسانا حكم عليه المجتمع بالموت واستخرج له شهادة وفاة .

خرج الشـــيخ خليل سيدرا يضرب كفـا بكف .. وتنظر له زوجته نظراتها القاسية الغاضبة التي تكشف عن أسنانها الناصعة البياض القوية السواد ، المرأة النوبية لا تميل الى زواج ابنها الثانى من زوجة الابن الاول الذى أخذه البحر والصراعات التى تفور داخل أمواجه .

المرأة النوبية تعيد قولها : انها قدم النحس على العائلة .. يكفيهما ضياع ابنهما البكر .. هل من التقـاليد الموروثة تقبل أن تزوج ابنها الثانى بامرأة ملتاثة العقل . .لم يرض أهلها أن يأووها بعد وفاة زوجها .

خليل سيدرا مازال مصرا على رأيه حتى ولو لم ترض امرأته .. حتى بعد أن وجد من زوجة ابنه عدم الاقتناع بوفاة زوجها .. انها امرأة تمر بمحنة ولن يتركها وحدها أو يتركها لرغبات المعلم الكبير النكشة .. أبدا .. ذلك سيتم فوق جثته هو شخصيا .. وان كان الجسد لا يساوى شيئا الآن بعد نوازل الزمن ومتاعبه .

وأثناء حديث الغضب بين خليل وزوجته واصرار كل منهما على موقفه ، خرجت نوارة من حجرتها ، على وجهها ابتسامة وضاءة .. الجمال يشع من كل قطعة فى وجه تلك البنية التى لم تعرف السعادة طويلا .

تسأل ببساطة ودعة تدعوان الى الرثاء : ياباسيدرا .. « هتجيبلى فستان بيلمع ويضوى بالترتر » .

يكاد خليل سيدرا يبكى فى وقفته مستندا الى عكازه فى طريقه الى الخروج من الدار الشبيهة بالجحيم الى السيالة الى سوق السمك الكبير يوصى بشروة كابوريا قادمة من البحر ثم يواصل طريقه وسط صهد ورطوبة حر أغسطس الى ورش المراكب القريبة من حارة النوى حيث هياكل السفن واقفة وسط الرمل والطين .. بعضها ملون بالسلاقون وبعضها يدهن من جديد ببوية البحر .

ورش صناعة السفن ، وأكشاك أصحاب الورش ذوى الكروش والامراض والحقد لكل من يملك ثروة وسطوة أكثر منهم ٠٠ الكره والحقد سمة الاغنياء قبل الفقراء ٠٠

خفير نائم وراء رصات عروق الاخشاب ، حلاق يحلق لصياد عجوز ذقنه ، مركب قديم مرفوع فوق أربعة براميل مغروزة فى الرمال ، تمهيدا لقلفطته وصيانته ٠

عندما دخل خليل المكان وجد كل الترحيب والمودة فهو صياد قديم ، أعطى نفسه للبحر والامواج والحيتان ٠٠ أعطى نفسه للكرم والحب ومساندة الصيادين الصغار ٠٠ فلم تعطه السنوات سوى الفقر والمذلة بعد أن فقد احدى ساقيه فى احدى مرات الصيد فى عرض البحر ٠٠

جلس الرجل وسط مجموعة الرجال ٠٠ يدخنون ويثرثرون عن الايام الخوالى ووحوش البحر المفترسة ٠٠ القرش ذو المنشار والقرش ذو المطرقة الكبيرة ٠٠ أسهبوا فى حديثهم واسقاطهم اللحظات الماضية على الواقع المر الذى يعيشون فيه الآن حتى قال صياد يقترب من دور الرجولة موجها حديثه للشيخ سيدرا :

ـ علمت يا ريس سيدرا ٠٠ ان قاسم سيعود الى البحر بعد خروجه من الجيش ٠٠ وهل سيطالب بمركب أخيه من النكشة ؟ ٠٠ المركب الذى لم يستلمه محمود ٠

وقال آخر : المركب الذى سرقه زبانية وصبيان النكشة ٠٠ ولم يدفعوا ثمنه بعد للخواجات ٠

وقال ثان : كان هدف الصفقة مساعدة الغلابة والمساكين ٠٠ ولكن أخذها أصحاب المراكب الذين فى غنى عنها ٠٠

وقال صياد شاب : ولكن قاسم عصبى وحاد ٠٠ مولود بداخله بذرة فرعون ٠٠ هل يتحمله صبيان النكشة اذا جاء يسألهم عن مركب أخيه ، هل سيسكتون عليه لو نزل معهم البحر يفسد عليهم ثروتهم المنزوعة من أكباد الصيادين الفقراء والذين يتاجرون بكل ما هو فاسد ومخدر ٠٠ هل تظنهم سيقفون منه موقف المتفرج ٠٠

ياريس سيدرا ٠٠ ألم يكفك ضياع ابنك البكر وسط البحر ٠٠ أو هل تصدق حقيقة أن هناك وحوشا فى البحر أخذت ابنك ، ما وحش الا بنى آدم ٠٠ وحش قذر يعيش يومه وليله فى سبيل كراهية وقتل الآخرين الابرياء ٠٠

وقال صياد عجوز كان يعمل بهمة فى دهان أحد اعواد مركب جديد :

ـ يا شيخ سيدرا ·· لن يتحمل أحدنا أن نفقد شبلا آخر من عيلة أبو الصيادين ، أبو الكرامة والانسانية أبعد ابنك عن النكشة ولنعش بقية عمرنا فى أمان ·· لم يعد لنا فى العصر بقية طويلة ·· قال كلماته ثم جلس وسط الرجال ·

وقال سيدرا أخيرا : يارجالة ·· لا نستطيع ابعاد المقدر ·· أو تاجيله أو تسويفه ·· قدر ابنى الثانى معلق فى رقبته ·· الولد شاب وطائش وقوى ولا أستطيع أن أجمح غضبه أو أن أكبله بالحديد ·· انى أحبه بقدر ما تحبونه جميعا ·· والقلب مثخن بالجراح والالم من البحر ومن صيادى الوحوش ومن قاتلى الشباب فى عرض البحر ·· ولكن ليس فى يدى شىء ·· أنا انسان مثلكم تماما ·· والولد شاب والشباب له وهجه وبريقه وتمرده ·· الولد سيترك هذا الاسبوع الجندية ·· وسيتزوج زوجة أخيه كتقاليدنا التى نعرفها جميعا · وبعد ذلك يعمل الله مافيه الخير لنا جميعا ويبعدنا عن مظالم وجبروت النكشة · ويهده فهو قادر ·

وتفرق الصيادون كل الى حال سبيله ·· ولم يبق سوى الشيخين ·· الوحيدين الباقيين على الرمال ، وسط القوارب المقلوبة ·· القوارب التى يعاد دهانها من جديد فى سبيل مواجهة البحر الغاضب وما يأتى به من نوازل ·

ـ ١٠ ـ

● المراكب منتشرة فى الميناء ·· أعلام بعيدة قادمة ·· صخرة صلبة مكسوة بالطحلب الاخضر تقاوم الموج ·· لو أستطيع أن أعلو على هذه الامواج ·· أتغلب عليها ·· أقهرها ·

هناك أشياء لا يمكن للانسان أن يصنع معها شيئا ·· مثل زينب الطيبة ·· حبيبة الصبا والشباب ·· القلب والروح ·· والتى توافق على كل الاشياء ·· تعرف أنى سأتزوج من غيرها الخميس القادم ·· زوجة بالاسم ·· زوجة بالجسد فقط ·

هذه المختلة العقل ·· والتى ضبطتها فجر أمس تتسلل من حجرتها فى الدار الى الميناء ·· ماذا تفعل هذه المعتوهة ·· تنتظر من ·· ترقب من ·· الذى ترقبه مات منذ وقت طويل وانتهت



ذكراه حتى من نفوس أصدقائه ·· لايحرك جذوة أيامه الا لحظات تذكر أبويه له ·· لحظة ألم يبتغيانها معا ·· شباب ولى ولن يعود وحنين الى الماضى ··أما عن زملائه فى الحياة فالكل تناسوه مع زحمة ومصاعب الحياة ·

أنا الوحيد الذى أذكرك وأبتغيك ·· ليس لانى أشبهك ·· فانى اختلف عنك أنت قوتك فى حديثك وصبرك ·· وأنا قوتى فىذراعى وتمردى وعدم رضاى ·· حتى ولو أصبح سبب دمارى ··

خرجت المخبولة عند الفجر الى الميناء ·· حيث المراكب القادمة بشحنتها من الاسماك الكبيرة والصغيرة ·· تقف بالساعات تنتظر ·

هذه المرأة الجميلة الملتاثة العقل ستكون زوجته ولا يستطيع منها فكاكا ··سلطان وتقاليد العائلة كسلطان النكشة الذى يبعثرالخوف فى وجه من يتصدى له ·· من يجرؤ فى الحديث عنه بصوت مرتفع قوى أو يواجهه ·· أما من يتحدث مع نفسه أو مع بعض الضائعين الذين لايقدرون حتى على رزق يومهم ··فلهم حرية الصوت الواهن·

لن يرضى لنفسه بتلك المسكنة التى رضى بها أهله سنوات بعد سنوات ·· لن يرضى بالاب المحافظ على التقاليد ·· الرجل الذى أكل السمك جزءا من ساقه ·· وأصبح عاجزا يحلم ويتوهم ··



يرضى بالقسمة والنصيب حتى عندما يفقد ابنه الاكبر فى مقاومته للسلطان ٠

وزينب القانعة العاجزة التى تحبه لذاته ، بدون هدف سوى رضاه ٠٠ حتى ولو كان على حساب حياتها ٠٠ كفاه مسكنة ٠٠ كفاه محافظة على تقاليد بالية ،ترسم له معاشرة زوجة ملتاثة رضيت بالانتظار حظا ومستقبلا ٠ لن يعيش مثل الآخرين يعمل حسابا عظيما لسلطان يدعى النكشة ٠

أبدا ٠٠ حتى ولو اضطرته الحياة الى الهجرة ٠٠ تهاجر تهرب ٠٠ الى أين ؟ ٠٠ هنا ولدت ، هنا أحببت ، هنا أصدقاؤك المزيفون ، هنا أبوك الغارق فى حب التقاليد ٠٠ هنا سماؤك وأرضك وبحرك ٠٠ الذى لن تكرهه أبدا ، فهو رزقك ٠٠ جزء من أرضك ٠٠ حتى لو كان مستقر الجسد أخاك ٠٠ فالبحر رغم أهوائه ٠٠ أكثر حنانا من بعض البشر ٠

هنا أرضك ، تقاتل عليها تموت عليها ٠٠ ولكنك لن تهرب ٠٠ هنا مناخك ، صحوتك ، شمسك وقمرك ٠٠ ولا يوجد مكان آخر يعرفك ، يريدك ٠٠ أنت هنا مع الدفء ، الذين يريدون إبعادى ، فليذهبوا هم بعيدا ٠٠ أما أنا فسأبقى للريح والشمس والحب

وقلعة قايتباى الخالدة الباقية التى بناها أولاد عراة حفاة .. كلنا نموت ويبقى هذا الاثر لعديد من السنوات .. سأبقى ما بقى لى عمر .. حتى ولو فقدت أبوى .. وتركت بيتهما الذى تعيش فيه الملتاثة .. حتى ولو ابتعدت عن شارع السيالة حيث تسكن زينب حبيبة الصبا والشباب .. حتى ولو تركنى الاصدقاء .. انهم يمثلون حال الدنيا .. فهم لا يختلفون عنها كثيرا ..

ويمسك الفحم المشتعل بأصابعه .. النار لم تعد تؤلمه .. وينادى سنقر صبى الغرزة ليعيد ترتيب الحجارة القديمة .. لن يكون مثل السابقين .. ودمعة ألم تطفو على سطح قلبه .. وقوة منهلة صارخة تساند نفسه .. يمسك بأصابعه بالبوصة .. كأنه يدعوها .

ويخرج من الغرزة .. والمساء جاء وابتعد منذ ساعات قليلة .. الى امرأة يعرفها معرفة جيدة .. ويعيش كل منهما قصة حب غريبة .. قصة حب تدوم للحظات قصيرة ولكنه حب صاف .. حب امرأة وحيدة ورجل مختلف يقول دوما عند الوداع : أنت توأم روحى ،أنت حرة ، لم يكبلك رجل واحد بارادته .. وأنا أيضا لم تكبلنى الحياة حتى هذه اللحظة .. ماذا أفعل ؟ .. هل أتزوج من زوجة أخى .. هل أساير أبى الشيخ عابد التقاليد .. هل أساير النكشة .. وأرضى أن أكون من عبيده أو خدمه مادمت أحب وأحن الى البحر وأمواجه الصاخبة والحياة المجنونة البعيدة داخله .

ماذا أفعل ؟ .. أنت امرأة حرة .. لم أجدك مرة واحدة تلتقين مع رجل لا تهتمين بأمره ..

وتصمت المرأة الوحيدة التى تفهمه وتعرف ما يجرى داخل نفسه الحائرة .. البعيد عن كل البشر الذين عرفتهم .. لذلك تعشقه عشقا خاصا يليق بانسان مختلف متوتر تماما كالموج الغاضب الذى لا يستقر على حال .

ماذا أفعل ؟ .. ولا تجد ما ترد به عليه .. ولكن أرجوك لا تفسد الليلة على وعليك ..

ولا يستطيع فهناك قوى أكبر من الانسان .. أكثر من اللحظة المشبعة بالمتعة ..

سأذهب غدا .. من الصباح المبكر الى السلطان .. الى النكشة .. لعلى أستطيع أن أدينه .. أحتقره وهو داخل داره .. داخل صومعته .. داخل هيلمانه .

وتودعه حتى درجات السلم .. تقبله على جبينه قبلة مشبعة بالحب والدفء والفهم .. لماذا لايفهمه سوى هذا النوع .. الأتهن نسوة يتمتعن بالحرية وبالتجربة ..

– ١١ –

● عند باب الجمرك ، باب ٣٦ باسيلى ، مقهى يفرد ذراعيه الى الخارج . تنتشر دوائره النحاسية وأشكاله المنبعجة من كراسى على الرصيف العريض أمام طريق الجمرك ..

فى الداخل ، صالات وحجرات وأعمدة مدهونة بالزيت ، وسقف جمالون قديم ، أثر انجليزى قديم ، ونصبة خزان الرميلة ونراجيل لها الطابع القديم ، ومكتب خشبى متآكله حوافه ، يجلس خلفه موظف فى المعاش ، لاستقبال الماركات ومجموعة من الجرسونات العواجيز لخدمة الزبائن .

– قالوا ياريس البحر خدنى معاك احسنلى
أتعلم الكار بوسع البال احسنلى
يا تخدنى لنوتى يشد الحبال أحسنلى

– يا جماعة .. كفاكم .. احنا ميتين .. ماشيين ميتين
– ربنا يصلح الاحوال .. زى زمان .. والله أديه حقاته ..
– زى ما أنت بتاكل .. خلى الناس تاكل ..

خارج المقهى .. صف طويل من القواربية واقفين فى سبيل الحصول على تصريح دخول الميناء .. القادرون منهم يقومون برشوة الشرطى السواحلى فى سبيل أخذ التصريح .

تتحرك عربات المعونة من داخل الميناء الى الشارع المجاور ، تراقبها أكثر من عين .. فقد تم التفاهم عليها ، محلات صغيرة لبيع كل الاصناف .. يقف القواربية عندها يساومون على قطع الفضيات الصغيرة وخراطيش السجائر والمراوح وزجاجات الخمور ، هناك أيضا بعض المحلات الكبيرة لتجارة مخلفات السفن تحمل يفطا لاكبر أسماء مقاولى الشحن والتفريغ ، من بعيد تقف مئذنة سيدى أبى العباس عالية ترقب المكان وما يحدث فيه . الترام الاصفر والبيوت الزرقاء وخطوط المياه السوداء والمراكب البيضاء ، أغنية قواربى حزين تتردد فى المكان :

من ميلة البخت وقفت مركبى وطلعت ما بين غروب وعصارى
طلعت بيها أبلط لما البر •• بقى جارى ••
بشيل بعينى لقيت العويل أطول منى ••
طبقت المدارى •• وقلت البر أحسنلى

والوقت عصر ، نسمة هواء آتية من اتجاه البحر • دخل قاسم المقهى المعروف باسم النكشة •• من كثرة جلوس النكشة وصبيانه يتحاسبون ، يتفاهمون ، يدبرون المآسى •

دخل قاسم المكان ، غير مهتم بالجالسين ، أخذ اتجاها مباشرا الى النكشة فى جلسته وسط مجموعة من رجاله •• « محسن رومه وجميل خياطه وآخرون » ، وبعد أن رمى عليهم السلام •• جلس معهم •• النكشة قام بواجب الترحيب بقاسم خير قيام قائلا :

ــ أنت فين يا خيرة شباب السيالة والانفوشى •• سمعنا أنك انهيت مدة خدمتك •• وأنك قريبا ستعود الينا الى البحر ••

ــ ولهذا جئت اليك •• أطالب بمركب أخى الذى لم يستلمه لموته المفاجىء ••

وقال النكشة وهو يعلم تماما مدى كلماته : لكن هذا ماض بعيد •• والمراكب تم توزيعها •• كذلك الشباك والتكنة (والموتور) •

وقال قاسم فى حدة طبع واضحة على معالم وجهه الذى لايستطيع أن يخفى مشاعر صاحبه :

ــ يا معلم كلامك على العين والحاجب •• ولكن هذه المراكب ليست ملك أحد ، ولا حتى الجمعية التعاونية •• أعطوها لنا الخواجات بمناسبة الانفتاح بالتقسيط المريح •• وأنت تعلم أنها فرصة كل صياد صغير لا يملك سوى ساعديه •• !

وقبل أن يسمع رد النكشة ، استمر فى كلامه : لكن للاسف يا معلم •• فقد استغللت سلطتك ووزعتها على أصحابك وعلى مجموعة كبار الصيادين وأبناء المجموعة التى تعمل معك وتأمر بأمرك •

وهنا ثار بعض الرجال الجالسين حول النكشة •• وأسرع احدهم بفتح مطوته على قاسم الذى كان مازال جالسا وسطهم ، يعلو وجهه الغضب والمزاج السيىء وأشار النكشة على الصبى أو الكبير الذى تعجل الموقف بالهدوء ••

وقال النكشة فى هدوء : لم أستغل سلطتى •• وهناك الكثير من الصيادين الذين استلموا التكنة والمركب ، وأخوك كان واحدا منهم

.. كان سيأخذ مركبه لو استمر معنا .
وقال قاسم فى تحد : حتى أولئك الصيادون الذين أغدقت عليهم نعمك .. الواحد أو الاثنين أو حتى الثلاثة .. فقد تم استغفالهم وتسليمهم شباك فراخ وأرانب بدلا من الشباك المرسلة مع المراكب .
وهنا لم يتمالك محسن رومه نفسه .. قائلا : احترم نفسك يا ولد فى حضرة السلطان ولا تتفوه بعبارات مراهق ..
ورد قاسم :
ـ أحترم نفسى مع من يحترم نفسه .. كيف أحترم نفسى مع معلم يزايد على امتلاك الآخرين .. والا حرمهم قوتهم أو الفرصة التى تجىء لهم .. هل أحترم نفسى مع من تحقق معه النيابة فى شركة المصايد من أجل توريد شباك فراخ بدلا من شباك صيد ؟ هل تفسرون لى ذلك ؟
وهنا وقف الرجال حول قاسم .. يريدون أن يأكلوه أكلا من أجل السلطان التكشة .. لولا اشارة من التكشة معناها ، الصبر أجمل دواء ..
وقال التكشة : أنت دائما ولد عاق وقليل الادب .. وقد تعودنا منك على ذلك ، وقد لفظناك الى آخر العمر من البحر ومن الشط .. عد الى مكانك .. الى دارك بجوار أبيك العاجز .. على أخيك الف رحمه ونور .. كان قوى التعبير ولكنه مؤدب الطبع !
وقال جميل خياطه فى رعونة وخفة : هذا أبيض وذلك أسمر ياسلطان ، يقصد أن أم قاسم نوبية .. وأباه رجل من الصعيد .. فكيف جاء ذلك المدعو قاسم مخالفا للطبيعة والوراثة .

وهنا ثار قاسم واقترب بقبضة يده من جميل خياطه .. لولا أن الرجال خلصوهما عن بعضهما البعض .. رجال المقهى الذين يجلسون بعيدا ويأتمرون باشارة من السلطان .. التكشة لايريد متاعب مع البوليس فى نهاية النهار وخاصة أن التحقيق لم ينته بعد فى شركة المصايد .. حقيقة أن هناك تأكيدا من المسئولين بقفل كل الدوسيهات وأوراق الموضوع وكأنه لم يكن .. واعتبار الشكوى كيدية .. وتصريف السلك الموجود فى المخازن على صغار الصيادين فى هدوء وسعة حيلة وطولة بال حتى ولو كان لايصلح للصيد .. هذا قدرهم .. ألم يولدوا فقراء وأغبياء وضعفاء ..
وأخذ بعض الجالسين من القواربية وبائعى الانتيكات قاسم (بصنعة لطافة) الى خارج المكان .

الحديث مع السلطان انتهى ·· وان لم تكن على مستوى المناقشة ، الشارع أفضل لك من صالات وحجرات المقهى العجوز القديم حيث يستقر النكشة من العصر حتى الغروب ·· ثم يقوم يتفقد أعمـــاله عند الميناء وعلى السقالة ·· يقابل قبـــاطنة السفن الخاصة بنقل الحيتان الحية الى بلاد الافرنجة ·· يمر على ورش الاخشاب وصناعة السفن قبل عودته الى مكتبه فى الجمعية التعاونية ·· يقدم لنفسه حسابا بأحداث اليوم ومكاسبه ·

— ١٢ —

● عند الغروب ·· الشمس تسـقط ببطء لتختفى وراء الافق ·· أثناء سقوطها تنتشر الالوان الحزينة المفعمة بالالم والوداع ··

ومراكب فقيرة ضعيفة وحيدة ·· قريبة من الشط مات صاحبها ·· اختلف الورثة وبقيت مكانها ، ومراكب غنية مزدانة بالصوارى والاعلام التى لم تعد تستعمل ·· داخل كبائنها صناديق المؤن وعلى سطحها أقفاص الخبز والفاكهة ايذانا برحلة جديدة وسط البحر عند الفجر ·· ومجاميع تقف بعيدا ، ومجاميع تقف قريبة من السقالة فى انتظار مركب لم يعد صاحبها منذ يومين ·

وجامع جديد وقلعة قديمة وموج صاخب عنيد عنيف ·· لا يريد أن ينسى أحد وجوده أو تأثيره ··ومركب صيد تتحرك من عند مقدمة السقالة بعد أن جمعت شباكها الحلزونية المثقلة بقطع الرصـــاص والفلين ·· داخلها أطنان من الاسماك جذبتها أيام الرحلة الطويلة ·

ومراكب قادمة ، وسماء ناعمة ، ولمسة حب ولكنها حارقة ،حب لم يتم ، حب من طرف واحد ·· يعذبنا لحظات ثم ننساه مع دخان السجائر وتتابع الايام ·

ودمعة طفل ، وصرخة امرأة ، ورجل أخذه البحـــر منذ سـنة ، وسلطان اسمه النكشة قوى وغادر وليس له صديق ،لكن له مريدون يلاعبهم بأصابعه ويلفظهم متى يريد ·

والمساء يدخل على الغروب ليمتزجا ··الغامق بالبنفسجى وتختفى تماما طيور البحر ·· ويدخل النكشة الميناء قادما من العربة المرسيدس الصفراء اللامعة بلون الرمل الساخن ··ويسرع جميع الرجال لتحيته ·· ويظهر فجأة قبطان السفن الطليانية المشهورة بلونها الارجوانى ·· يظهر القبطان لتحية النكشة ·· مصالح هى التى تربط البشر ·· ويسأله عن موعد تسليم الشحنات القادمة من الحيتان الحية ·

وعلى الشط القريب .. صياد مسن له لحية بيضـاء .. يغنى لحبيبة كانت موجودة فى حياته فى يوم من الايام :

يالى رماك الغرام .. خليك بعيد حبة
الحب وردة وسبب زرعته حبة
بتخش في القلب .. تكبر كل يوم حبة

يلتف حوله بعض الصيادين المساكين الذين لا يجدون ما يفعلونه فى الليل بعد عودتهم من البحر الهائج كذلك بعض الاولاد الصغار .. الناس تخاف دائما الوحدة والوحشة .

على السقالة مجموعة من الصـيادين يتحدثون مـع النكشة عن أوضاعهم بصفته رئيس جمعية الصيادين .. الحال ينخفض بهم يوما بعد يوم بسبب تحكم السـوق .. السوق يحكمه بعض الرجال النادرين المبالغين فى العظمة والثروة .. وهم أين مآلهم ومستقرهم الاحوال تسوء يوما بعد يوم ، جاءوا ليكلموا السلطان والسلطان هو أقوى الشخصيات الحاكمة فى الميناء ..والرجل يسمع بثبات ورجولة تليق بحكمته ومركزه الذى فرضته الظروف والثـروة التى تتستر خلفه .

ويقترب شاب .. قمحى اللون ،نحيف الجسد .. لوحته الشمس والريح .. يقترب فى ثبات ويضرب النكشة فى صدره بمطواة قرن غزال قاتلة ..

ويفاجأ الناس .. وقبل أن يبحثوا عن القـاتل المجرم .. يرمى القاتل بنفسه داخل اليم فى نهاية السقالة .. حيث المياه غريقة وسط مجموعة ضخمة من مراكب الصيد .. الاجنبية والمصرية .. الكبيرة والضعيفة .. التى مازالت تحتفظ بالصـارى والتى تعمل بالموتور ، مراكب مسافرة ومراكب قادمة .

ويقع النكشة على مقدمة السقالة .. جسده مفرود على السقالة .. احدى يديه فى اتجاه الماء .

ويأتى البوليس والاسـعاف وقبلهم صبية ومريدو النكشة .. ولكن الاصابة قاتلة .. اصابة فى الصميم .

يبحثون عن الشاب النحيف قاسم سيدرا .. فى البحر .. ولكنه مثل ابرة فى كوم قش .. أو طحلب وسط المياه الزرقاء السوداء .. اختفى الشاب تماما .. يبحثون داخل المراكب الكبيرة والصغيرة، داخل الكبائن داخل صناديق المؤن ، ولكن لا أثر له .. هل اخذه اليم .. هل سقطته كانت سقطة الموت .

ظلوا حتى الفجر يبحثون عنه .. حاول البوليس الحديث مع الشيخ المسن خليل سيدرا ولكن بدون فائدة .. الرجل لا يستطيع الحديث .. في سنة واحدة فقد ابنيه .. ماذا يقى له .

في الفجر .. عاد الرجل وحيدا الى داره لا يسانده الا عكازان ..

بعد أسبوع ازدحم الميدان وشارع رأس التين .. أثنـاء سيرهم وراء نعش بسيط لصياد فقير ، المشهد كان عظيما ومهولا .. فقد خرج كل سكان الانفوشي وراء الشيخ خليل سيدرا .. وكأنهم يودعون معه أبنيه محمود وقاسم اللذين اختفيا عن الوجود بدون أن يتركا أثرا ..

وعادت نوارة الى منزل العائلة الكبيرة .. منزل حميدو الفارس الواسع ، الكثير الحجرات ، تخدم زوجة أبيهـا المريضة السليطة اللسان ، تدلل أولاد أخوتها .. لا تملك أن يكون لها صغير .. تحس معه بشعور الامومة الحلو .. تشعر معه أنها انسـانة لهـا كيان وعظمة .

جمال وقلة بخت ، هذا ما يقال عنها فى المناطق القريبة ،نوارة لم تفقد جمالها ونضارتها بعد .. الوجه مثل القمر .. الخدان فلقتا ثمرة تفاح .. الانف دقيق مميز مرفوع علامة الكبرياء والشموخ .. العينان واسعتان فاتحتان مثل مياه البحر الازرق ، الجسد ممشوق رائع التكوين ..

يشاهدها الرجال ويتمنونها في سرهم .. لكن لا أحد يستطيع أن يقترب منها .. أصـبحت النحس بعينه لكل الرجال الذين يرتبطون بها ..

مازالت كعادتها تظهر كل عدة أيام عند الشط .. تراقب السفن القادمة بحمولتها من الاسماك والقوارب القادمة تشد خلفها أكياس الغزل الاسطوانية الشكل ومكعبات الرصاص والفلين الاصفر ..

تراقب بعينين دامعتين حصيلة أسماك اليوم .. وصخب الصباح المبكر .. ونداء المزايدين على الاسماك .. وألواح الثلج وصناديق المؤن تتحرك الى المراكب ..

تمسح دمعتين .. ثم تعود من حيث أتت .. تشـيعها نظرات الرجال المحمومة ..

وتبتعد المسافات بينها وبين الصيادين الذين يعودون الى عملهم والى ربيعهم الدائم وزهوة الصيد والآمال الجديدة التى تستيقظ مع كل صباح جديد ..



ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :

موسى صبري

رئيس التحرير :

أنيس محمد عدلي

نائب رئيس التحرير :

عبد العزيز عبد العليم

مدير التحرير :

حسين فريد

العدد ١٨٥ جمادى الثاني ١٤٠١
مايو
آيار ١٩٨١

الإدارة : اخبار اليوم ٦ شارع الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية :
قيمة الاشتراك السنوي ٣,٥٠٠ جنيه مصري

البريد الجوي :

دول اتحاد البريد العربي والافريقي { ٥ جنيه مصري
٩ دولار أمريكي أو ما يعادله

باقي دول العالم (أوربا والامريكتين وآسيا واستراليا) { ١٠ جنيه مصري
١٥ دولار أمريكي أو ما يعادله

• ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
• ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٦ شارع الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨١/٢٧٥٢

الترقيم الدولي ٦ - ١٩ - ٧٣٢٧ - ٩٧٧



منتجات
جولدستار العالمية
للسادة تجار
الأجهزة الكهربائية
ولأول مرة في جمهورية مصر
GOLD STAR
GS
كبرى الشركات العالمية المتخصصة في الالكترونيات
تليفزيونات ١٢ و ١٤ و ١٧ و ٢٠ بوصة
راديوهات ٢ موجة
راديو ٢ موجة مزود بموقت وساعة كوارتز
بأسعار تتحدى كل الأسعار
مركز خدمة مجهز
١٤٥ ش شبرا ت ٩٤٢٤٠٥
IRRADIO
الوكيل الوحيد
الشركة المصرية للأجهزة الكهربائية
١٥٩ شارع شبرا - تليفون ٩٤٢٤٠٥



حلاً لأزمة الإسكان
شركة مسرة العقارية
عطيه محيي الدين وشركاه
٥٧ شارع الأمير - خلف بنك القاهرة / شبرا مصر
ت : ٩٤٧٠٣٢
تقدم
قطع أراضي بأسعار مناسبة
لبناء ڤيلتك أو عمارتك
بأجمل المواقع بمصر الجديدة بالقرب من
نادي الشمس
على شارع جسر السويس
و قطع أخرى بالخانكة وشبرا الخيمة
ولشركات الاستثمار قطع لبناء المصانع في
المناطق الصناعية
البيع بالنقد و التقسيط
المعاينة بسيارات الشركة مجانا
مواعيد العمل :
من ٩ صباحاً إلى ٨ مساءً يومياً ماعدا الثلاثاء
مع تحيات المدير العام
محمد علي البحيري
٢٥ قرشا